الكعبة المشرفة في الشعر الجاهلي

د.عبد الغني زيتوني

سورية

لقد حظيت الكعبة المشرفة بمكانة رفيعة وقدسية عظيمة لدى العرب القدماء، عبر أزمان طويلة وأحقاب مديدة، لم يحظ بهما أي مكان آخر؛ سواء أكان في العصر الجاهلي أم قبله بآماد بعيدة. ولما جاء الإسلام زادها تعظيما وتشريفاً، فجعلها قبلة المسلمين، يتوجهون إليها في صلاتهم وعبادتهم، وتهوي إليها أفئدتهم كل عام، محاولين زيارتها حاجين أو معتمرين؛ ليقضوا ركناً أساسياً من أركان الدين الحنيف. ولا ريب في أن الشعر الجاهلي والتراث العربي القديم قد أولياها اهتماماً كبيراً، يضاهي ما لها من منزلة بين العرب قبل الإسلام، وسيبدو لنا ذلك جلياً من خلال البحث في تسمياتها المتعددة، وفي زمان إنشائها، وفيما كان من حج العرب إليها وتعظيمهم لها، وكذلك في بيان ما كانوا يهدون إليها، ويرون من حرمتها.

أولاً: التسمية

يبدو لنا من الشعر الجاهلي أن هذا البناء الشريف لم يخصه العرب القدماء باسم واحد إنما أطلقوا عليه تسميات مختلفة، وهي كلها تعبر عما يجيش في نفوسهم من مشاعر التعظيم والتقديس تجاهه، وعما يعتمر في صدورهم من معاني الإجلال والتقدير مقترنة بمعاني الخشية والرهبة من الله العلي، رب الكون والكائنات الذي يكلؤه بعنايته ويرعاه. ولعل أهم هذه التسميات التي ألمَّ بها الشعر الجاهلي:

١- **الكعبة:** وهي من أشهر التسميات، ومن أكثرها تداولاً في التراث العربي

القديم؛ بيد أنها لم تأخذ حيزاً كبيراً من الذكر في الشعر الجاهلي، يناسب شهرتها وتداولها، ولعل السبب في ذلك يعود إلى وجود أبنية مقدسة أخرى أطلق عليها اسم الكعبة؛ ككعبة سَنْداد بين الحيرة والأبلة في العراق(١)، وكعبة نجران باليمن(٢)؛ لذلك لم يذكر الاسم على إطلاقه كثيراً خشية الالتباس بالكعبات الأخرى، بيد أن ذلك لا يعني عدم ذكره إطلاقاً في الشعر الجاهلي(٣)، وتسمية الكعبة أتت من معيني التربيع والارتفاع، فإذا كان البيت مرتفعاً وأخذ شكلاً مربعاً سُميّ كعبةً(٤).

وقد أشار إلى الكعبة النابغة الذبياني، في معرض اعتذاره للنعمان بن المنذر، وتوكيده ذلك بالقسم برب الكعبة التي يُتمسح بها إجلالاً وتقديساً، وبما يراق من دماء العتائر على الأنصاب، وبالله الذي يحمي طير مكة، إنَّ ما بُلِّغ به وشاية غير صحيحة، وإلا فلتُشَلّ يده إذا كان الأمر خلاف ما يقسم به(٥):

فـــلا لعمـــرُ الـــذي مسَّـــحتُ كَعْبَتَـــهُ   ومـا هُريـق علـى الأنصـابِ مـن جَسَـدِ
والمـــؤمنِ العائـــذاتِ الطيـــر تمْســـحُها   ركبـــانُ مكَّـــة بـــين الغَيـــلِ والسَّـــعدِ
مـــا قُلـــتُ مـــن ســـيّئٍ أتيـــتَ بـــهِ   إذاً فـــلا رفعـــتْ ســـوطي إلـــيَّ يـــدي

كما ورد ذكر الكعبة والقسم بالله ربها فيما يروى من شعر لزنباع بن روح، يبين فيه أنه كان يعتزم غزو مكة، والنيل من عمر بن الخطاب الذي هدده وتوعده، بيد أن خشيته من الله القدير، وحرمه الكعبة منعتاه من ذلك(٦):

تمنَّـــى أخـــو فِهْـــرٍ لقـــائي ودونـــه   قَراضِـــبةٌ مثـــلُ اللّيـــوثِ الحـــواظرِ
فواللـــهِ لـــولا اللـــهُ لاشـــيء غيـــره   وكعبتُـــهُ، راقـــتْ إلـــيكمْ معاشـــري

وثمة رواية تشير إلى أن بعض العرب كانوا ينسبون أهل مكة إلى الكعبة، لشهرتهم بها وتعظيمهم لها، فيطلقون على الرجل "الكعبيّ" وعلى المرأة "الكعبيّة"؛ فقد ورد أنّ أبا جُنْدَب بن مُرَّة القِرْديّ أجار رجلاً من أهل مكة، نزل بجواره، فعدا عليه زهير اللَّحياني، فقتله وقتل امرأته، فلمّا علم أبو جُنْدَب بذلك خرج من أهله حتى قدم مكة، فاستلم الركن، وكشف من قفاه، وطاف، فعرف الناس انه يريد شراً، وقال[٧]:

إنّي امروٌ أبكي على جاريَّهْ   أبكي على الكعبيِّ والكعبيَّهْ
ولو هلكتُ بَكَيا عَليَّهْ   كانا مكان الثوبِ من حقْوَيهْ

ووردت الكعبة أيضاً فيما كانت تلبي به بَجِيلة في الجاهلية، إذ كانت تقول[٨]:

لبَّيْكَ اللَّهمَّ لبيْك   لبَّيك عن بَجيلَهْ
ذي بارقٍ ومخِيلهْ   بْنَيّةِ الفضيلهْ
فَنِعْمتِ القبيلةْ بكعبةٍ جليلهْ   حتى تُرى طائفهْ

ولا جدال في أن اسم الكعبة زاد شيوعه وتداوله في الإسلام، وخاصة بعد أن أزيلت الكعبات الأخرى، فأصبح علماً يُطلق على كعبة فحسب، وقد خصّه القرآن الكريم بالذكر مرتين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تقتلوا الصَّيدَ وأنتم حُرُمٌ، وَمَنْ قَتَلهُ مِنْكُم مُتَعَمّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ من النَّعم يَحْكُم بهِ ذَوَا عَدْل مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ أو كَفَّارةٌ طَعَامُ مَسَاكِيْنَ أوْ عَدْلُ ذلِكَ صيَاماً لِيَذُوْق وبَال أمْرِه..﴾[٩] ، وورد ذكره في السورة نفسها في قوله جَلَّ وعلا: ﴿ جَعَل اللَّه الكَعْبَة البَيْتَ الحَرام قِيَاماً للِنَّاس...﴾[١٠].

٢- **البيت:** إذا كان اسم الكعبة لم يرد كثيراً في الشعر الجاهلي فإن اسم البيت كان أكثر ذكراً لدى الشعراء؛ سواء أكان ذكرهم له إطلاقاً أم مضافاً إلى الله تعالى أم موصوفاً بالحرمة والعتق. ومما يجدر ذكره أن لفظ "البيت" قلَّ أن يرد في الشعر من دون أن يكون مقصوداً به الكعبة؛ ولا سيما إذا كان في سياق القسم والتعظيم والإجلال.

فمن ذلك قول عنترة بن شداد في معلقته، مستغرباً من تعلقه بمحبوبته، على حين أنه يقاتل قومها، مقسماً بالله رب الكعبة أن حبها، إذا كان الأمر كذلك، ادعاء منه وليس حقيقة(١١):

عُلَقتها، عرضاً وأقتلُ قومها زعْماً، وربّ البيت، ليس بمزْعِمِ

وعلى غرار ذلك أقسم زهير بن أبي سلمى في معلقته أيضاً بالبيت الذي يُطاف حوله يميناً مغلظةً على أن الحارث بن عوف وهرم بن سنان، اللذين سعيا في الصلح بين عبس وذبيان، أفضل من وُجِدا من السادة الأشراف في السلم والحرب(١٢):

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طاف حولَه رجالُ بنوه من قُريش وجُرْهمِ
يميناً لنِعْمَ السَّيدانِ وُجِدْتُما على كلّ حالٍ من سحيلٍ ومُبْرمِ

ولما كان العرب الجاهليون يعتقدون أن الكعبة بيت الله، رب الأرباب، فإن شعراءهم صرحوا بذلك في مواطن عدة من أشعارهم، وخاصة في مجال القسم على أقوالهم توكيداً وإثباتاً؛ على نحو ما نجد ذلك لدى عبد الله بن الزبعرى الذي أشار إلى أنه أقسم ببيت الله لا يقسم على كذب ولا يحنث بقسمه أبداً(١٣):

فــــإن أحْلِــــفْ، وبيــــتِ اللّــــــ ـــــهِ، لا أحلِــــفْ علــــى إثْـــــمِ

ويقسم حاتم الطائي القسم نفسه على أنه كان يود لو أن ضربته، التي أطارت أنف خصمه، قضت عليه قضاءً تاماً(١٤):

وَدِدْتُ، وبيــتِ اللّــهِ، لــو أنَّ أنفَــهُ هــواءٌ فمـــا مَـــتَّ المخـــاطَ عـــن العَظْـــمِ

ولا يكتفي قيس بن الحُداديَّة بالحلف ببيت اللَّه وإنما يردفه بالحلف بالأنصاب التي تُقدَّم لها الذبائح، معبراً عن عقيدته التي تشرك الله بالأوثان(١٥):

تَلَيْنَـــا ببيـــتِ اللـــه أول حَلْفَـــةٍ وإلا فأنصـــابٍ يَسُـــرْن بِغَبغَـــبِ

ولا ريب في أن العرب الجاهليين اعتقدوا بأن عناية الله عز وجل تحمي الكعبة وتصونها، ومن ثمَّ أطلقوا على البيت صفة الحرام والمحرَّم، فحرمته مستمدة من حرمة الله؛ وآية ذلك ما نجده لدى كَرِب بن جَبْلَة العدواني واصفاً طوافهم السريع حول الكعبة على الإبل(١٦):

فطـــوَّفْنَ بالبيـــت الحـــرام، وقُضّـــيتْ مناســـكُها ولـــم تَحُـــلَّ عقالَهـــا

وجاءت الصيغة أيضاً فيما ورد من تلبيةِ عكّ ومَذْحِج في الجاهلية، إذ كانتا تلبيان فتقولان(١٧):

يـــا مكَّـــةُ، الفـــاجرَ مُكّـــي مَكَّـــا   ولا تُمكّـــــي مَـــــذْحِجا وعَكَّـــــا
فيتـــــرك البيـــــت الحـــــرامَ دكّـــــا   جئنـــــا إلـــــى ربّـــــك لا نَشُـــــكا

ونعتته الخنساء بالمحرَّم في رثائها لأخيها صخر حين أقسمت برب الإبل التي تحمل الحجاج قاصدة الكعبة أن قومها قد أصيبوا بمصيبة عظيمة عند مقتل صخر، لأنه كان أفضلهم فتىً وخيرهم رجلاً[١٨]:

حَلْفَـــتُ بـــرب صُـــهْبٍ مُعْمَـــلاتٍ   إلـــى البيـــتِ المُحَـــرَّمِ مُنْتهاهـــا
لـــئن جزِعَـــتْ بنـــو عمـــروٍ عليـــه   لقـــد رُزِئَـــتَ بنـــو عمـــرِو فتاهـــا

وأطلق عليه زهير بن أبي سلمى صفة "العتيق". ومعناها قريب من المحرّم إذا جعلنا العتيق بمعنى المعتوق أي الحرّ الذي لا يستطيع أحد أن يسترقّه ويستعبده، وذلك فيما نسب إليه من قوله[١٩]:

وبـــاللآتِ والعُـــزَّى التـــي يعبـــدُونها   بمكَّـــــةَ، والبيـــتِ العتيـــق المُكـــرَّمِ

وثمة إشارات أخرى في الشعر إلى البيت سترد في مواطن أخرى من البحث.

وتسمية الكعبة بالبيت، وما أطلق عليه من نعوت متعددة تدل على تقديسه وحرمته، قد ورد الذكر الحكيم، وإن كان وروده في غير صيغة القسم التي وجدناها في معظم الأشعار السابقة؛ فمن ذلك قوله تعالى واصفاً ما كان يقوم به المشركون في أثناء طوافهم بالكعبة من صفير وتصفيق: ﴿وما كان صلاتُهُمْ عبد البَيْتِ إلا مُكاء وَتَصْدِيةً، فذوقوا العَذاب بِما كُنْتُمْ تكْفُرون﴾[٢٠]. كما وردت عبارة "رب البيت" في قوله، عزَّ من قائل: ﴿لإيْلافِ قُرَيْشٍ إيْلافِهِمْ رِحْلَة الشْتَاءِ والصيَّف فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا

البَيْتِ...﴾[٢١]. كما أضاف التنزيل المحكم البيت إلى الضمير الذي يعود على الله عز وجل، فضلاً عن ذكر البيت من دون إضافة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وإِذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيْتِ أن لا تُشرك بيْ شيئاً وطهّر بيتي للطائفين والقائِميْن والرُّكَّع السُّجُودِ﴾[٢٢].

وإذا أتينا إلى الصفات، التي تدل على حرمة الكعبة وتعظيمها، فنجدها في مثل قوله عز وجل: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تُحِلوا شعائر اللهِ ولاْ الشَّهْرَ الحَرَام ولا الْهَدْي ولاْ الْقلائِدَ وَلاْ آمّيْن البيتَ الحَرَامَ يَبتَغُوُن فضْلاً مِنْ ربّهِمْ ورِضْوَاناَ... ﴾[٢٣]. وكذلك وُصِفَ البيتُ بالمحَّرم حكايةً على لسان إبراهيم الخليل، عليه السلام، في قوله جلَّت عظمته: ﴿رَبَّنا إنّي أسْكنْتُ مِنْ ذُريتيْ بِوَاد غَيْرِ ذِيْ زَرْعٍ عِنْد بَيْتِك المُحَرَّمِ...﴾ [٢٤]. كما وُصفَ البيت بالعتيق أيضاً في مثل قوله تعالى: ﴿ذَلكَ وَمَنْ يُعَظّمْ شَعَائرَ اللَّه فإنَّها من تَقْوىِ القُلُوبِ. لكُمْ فِيْهَاْ مَنَافِعُ إلى أجلِ مُسَمَّى ثُمَّ مَحِلُّها إلىْ البيتِ العَتيق﴾[٢٥].

وإذا أردنا أن نعلل التشابه بين الأشعار الجاهلية وبين الآيات القرآنية، بما يتصل بذكر البيت وصفاته، فإننا نرجح أن ذلك مردُّهُ إلى أن القرآن الكريم قد أبقى على الألفاظ والعبارات التي كان يستعملها الجاهليون في ذكر الكعبة، وما تدل عليه من معاني التقديس والتعظيم، توكيداً منه أن دعوة الإسلام ما هي إلا استمرار للعقيدة التوحيدية، التي دعا إليها إبراهيم الخليل عليه السلام، والتي جعلت بيت الله الواحد، وجعلت أهم أركانها تعظيم هذا البيت والحجّ إليه؛ ومن ثمَّ فليس هناك في الدين الإسلامي الحنيف أيُّ تغيير جوهري ينال من مكانه الكعبة وقدسيتا في قلوب العرب ونفوسهم؛ بل إن ثمة توكيداً وإثباتاً على أنها بيت الله، وعلى إطلاق صفات الحرمة والتقديس والتعظيم عليها، وسنجد أن ذلك ينطبق أيضاً على تسميتي " القبلة " و " المسجد الحرام".

٣- القِبْلَة: وهي بمعنى الجهد والقصد، ولكنها وردت أيضاً اسماً للكعبة[٢٦]، وعلى هذه التسمية وردت في بعض الأشعار الجاهلية؛ على نحو ما نجد ذلك لدى زيد بن عمرو بن نفيل، الذي رُوي أنه بحث عن عقيدة التوحيد في اليهودية والنصرانية فلم يطمئن إليهما، وظل متمسكاً بما ورد إليه من دين إبراهيم الخليل؛ لذلك يُعَدُّ من أبرز

الحنفاء، فكان يناجي الله تعالى قائلاً(٢٧):

عُـــذْتُ بمـــا عـــاذَ بِـــه إبـــراهيمْ   مُسْـــتَقْبِل القِبلَـــةِ وهْـــوَ قَـــائمْ
أنْفـــي لـــكَ اللَّهُـــمَّ راغِـــمْ   مَهْمَـــا تُجشَّـــمْني فـــإنّي جاشـــمْ

وفي أخبار الفيل وحملة أبرهة الحبشي على الكعبة أن عبد المطلب، جدَّ الرسول صلى الله عليه وسلم وعندما عاد من مقابلة أبرهة، يائساً من ردعه عن مهاجمة مكة وهدم الكعبة، قام ومعه نفر من قريش يدعون الله عَزَّ وجلَّ، ويستنصرونه على أبرهة وجنوده، وأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة، وأنشأ يقول(٢٨):

لا هُـــمَّ إنَّ العبْـــد يمْنَـــعْ   رحْلَـــهُ فـــامْنَعْ حِلالَـــكْ
لا يَغْلُـــبنَّ صـــليبُهمْ   ومحـــالُهُمْ، غـــدواً، مِحالـــكْ
إن كنـــتَ تـــاركهم وقِبْـــلَتَنا   فـــأمرٌ مـــا بـــدا لـــكْ

وعلى هذا الغرار من إطلاق اسم القبلة على الكعبة ما ورد في قول شاعر من العرب يذكر فيه أبا سيَّارة، عُمَيْلةَ بن الأعزل العَدْوانيَّ، الذي كان يدفع بالحجاج من المُزْدلفة إلى منى، على حمار له(٢٩): ،

نحـــنُ دفعنـــا عـــن أبـــي ســـيَّارَهْ   وعـــن مَواليـــه بنـــي فَـــزَارَه
حتـــى أجـــازَ ســـالماً حمـــارَهْ   مُسْـــتَقْبِل القِبْلَـــةِ يـــدعو جـــارَهْ

وقد ظل هذا الاسم يطلق على الكعبة في الإسلام بل إنه شاع استعماله كثيراً، لأنه على وجهة المسلمين جمعياً في صلاتهم وعبادتهم، وبهذه الدلالة ورد في قوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قد نرى تَقَلُّب وَجْهِكَ فِيْ السمَّاء، فَلَنُولّيَنّكَ

قِبلـةً تَرْضـاها، فَـوَلِّ وجْهَـكَ شَـطْرَ المسْـجِدِ الحـرامِ وحَيْـث مـل كُنـتم فَوَلّـوا وجـوهكم شطره﴾(٣٠).

وورد أيضاً في الآية التي تليها ﴿وَلَئنْ أتيت الذين أوتُوا الكتاب بكلِ آيةٍ ما تَبِعوا قِبْلَتَك﴾(٣١).

٤- **المسجد الحرام:** كان هذا الاسم معروفاً في الجاهلية، وكان العرب يطلقون أسماء "المسجد" و "المسجد الحرام" و"الحرم" على ما حول الكعبة، وقد يسمون ذلك كله "الحرم"، ولا تعرف حدوده في الجاهلية تماماً(٣٢)، بَيْدَ أن ثمة شاهداً شعرياً لقيس بن الخطيم يؤكد أنهم كانوا يطلقونه على الكعبة أيضاً، وذلك حين يقسم بالله صاحبه، ومالكه، وبما كُسي من برود كتانية يمنية أن الحب قد ملك عليه شغاف قلبه، وأثَّر فيه أثراً كبيراً(٣٣):

واللـــه ذي المســـجِد الحـــرامِ ومـــا جُلِّـــل مـــن يُمنـــةٍ لهـــا خُنُـــفُ
إنـــي لأهـــواكِ غيـــر ذي كـــذِبٍ قـد شُـفَّ منـي الأحشـاءُ والشَّـغفُ

وعلى هذا المعنى ورد في القرآن الكريم، على نحو قوله تعالى، في آية تحويل القبلة التي مرت بنا ﴿قد نرى تقلُّب وجْهِك في السَّماءِ، فَلنُوَلينَّك قِبْلةً ترضاها فَولِّ وجْهَك شَطْر المسْجد الحَرَام، وحَيْثُ ما كُنْتُم فَوَلوا وجوهَكُم شَطْرَه...﴾(٣٤) وفي قوله جلَّ وعلا أيضاً: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايةَ الحاج وعِمارةَ المسْجِدِ الحَرَام كَمَنْ آمنَ بالله واليَوْم الآخر وجَاهَدَ فيْ سَبيلِ اللهِ، لا يَستوون عند الله، واللهُ لا يَهْدي القَوْم الظالمينَ﴾(٣٥).

٥- **البَنيّـة:** وهي على وزن "فَعِيْلة" مشتقة من "البناء"، اسم علم أُطلق على الكعبة، ونرجِّح أن وزنها "فعلية" بمعنى مَفْعُولة أي "مبنيَّة" (٣٦)، وما يؤكد ذلك أن العرب كانوا يقولون عن الكعبة "بَنيَّة" إبراهيم؛ لأنه عليه السلام بناها، وكانوا يقسمون بها، فيقولون: "وحقِّ هذه البنيَّة"(٣٧).

وقد وردت في الشعر الجاهلي إشارات عدة إلى هذه التسمية؛ فمن ذلك ما ذكره قيس بن الخطيم في شعره يفتخر فيه بانتصارهم على قبيلة دحَي وهزيمتهم لها مراراً، حامداً الله ربَّ الكعبة على ذلك(٣٨):

الحَمْـــــدُ للـــــــهِ ذي البَنيَّـــــة إذْ أمْسَـــتْ دُحَـــيٌّ قـــد أُثْخِنَـــتْ غَلَبـــا

كم ذكرتها سُبيعَةُ الأحبّ في معرض حديثها عن مجيء الملك تُبَّع إلى الكعبة وكسوته إياها بالبرود اليمنية(٣٩):

ولقـــــد غزاهـــــا تُبَّـــــعْ فكســـــا بنَّيتهـــــا الحَبيْـــــر
وأذَلَّ ربّـــــــــي مُلْكَـــــــــه فيهـــــا فـــــأوفى بالنُّـــــــذور

وقد ورد اسم " البنيَّة" أيضاً لدى عبد الدار بن حُديب، من جُهينة، عندما دعا قومه قائلاً لهم "هلُمّ نبني بيتاً نضاهي به الكعبة ونعظّمُه حتى نستميل به كثيراً من العرب" فأعظموا ذلك، وأبوا عليه، فعبر عن ذلك في شعره(٤٠):

ولقـــد أرَدْتُ بـــأن تُقـــام بنيَّـــةٌ ليســـت بحُـــوبٍ أو تُطيـــفَ بمَـــأثمِ
فـــأبى الـــذين إذا دُعـــوا لعظيمـــةٍ راغـــوا ولاذوا فـــي جوانـــبِ قَـــوْدَمِ

٦- **الحَمْسَاء:** ورد أن الكعبة سُميّت بالحمساء لأن حجرها أبيض إلى السواد(٤١) ولا يستبعد أن يكون الحُمْس، وهم أهل مكة، قريش وخُزاعة، ومن دان بدينهم ممن ولدوا من حلفائهم، قد أتاهم الاسم من " الحمساء"؛ ذلك أنهم " بنو إبراهيم وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطَّان مكة"(٤٢)، وقد عرفوا بتشددهم على أنفسهم في دينهم(٤٣)، والحُمْس جمع الأحْمَس(٤٤)، ومن ثمَّ فالمفرد والمؤنث: "الحمْساء".

وقد وردت إشارات إلى الحُمْس في بعض الأشعار الجاهلية، على نحو ما نجد ذلك واضحاً في قول ساعده بن جؤيَّة الهُذليّ، يمدح شجاعة قوم[٤٥].

يُـدْعون حُمْسـاً ولـم يرتـعْ لهـم فَـزَعٌ   حتـى رأوهـم خـلال السَّـبْي والـنّعَمِ

ويذكر سلامةُ بن جَنْدل في شعره أنهم كانوا قد جمعوا الجموع الكبيرة لملاقاة قوم من الحُمْس، لما يعرف من شجاعتهم وصلابتهم، فيقول[٤٦]:

مـن الحُمـسِ إذ جـاؤوا إلينـا بجَمعِهِـمْ   غـداة لقَينـاهم بجـأْواءَ فَيْلَـق

٧- **القَطين:** لم يرد هذا الاسم دلالة على الكعبة إلا في بيت شعر للأعشى الكبير، ميمون بن قيس، وهو من فعل "قَطَنَ" بمعنى "أقام"، والقَطين: المقيم[٤٧]. ويقول الأعشى مادحاً النعمان بن المنذر بحسن التدبير، وصواب الرأي، وبعراقة النسب وكرم العنصر، مقسماً على ذلك بالله عز وجل الذي تحجّ قريش كعبتَه[٤٨]:

لعمـرُ الـذي حجَّـت قـريشٌ قطِينَـهُ   لقـد كُـدْتَهُمْ كَيْـدَ امـرئٍ غيـرِ مُسْـنَدِ

المُذْهَب: ذُكر أنه اسم من أسماء الكعبة، والمُذْهب: المطليُّ بالذهب[٤٩]، واستشهد على ذلك بشر بن أبي خازم الأسدي، يقسم فيه بالإبل التي عُلّمَتْ بنحورها، فسالت منها الدماء، علامة على إهدائها، لنحرها في مِنى تقدمة لله عز وجل، وقضاء ركن أساسي في الحج، كما يقسم بالأمكنة المقدسة في مكة التي تضم في جنباتها بيت الله الحرام، فيقول[٥٠]:

حلفـــتُ بــــربِّ الـــدَّامياتِ نُحُورُهـــا   ومـــا ضَـــمَّ أجيـــادُ المُصَـــلَّى ومُـــذْهَبُ

٩- تسميات أخرى: فضلاً عما مر بنا من أسماء للكعبة فإن ثمة تسميات أخرى ذُكرت على أنها خاصة بها؛ بَيْدَ أننا لم نجد شواهد من الشعر الجاهلي تؤكد تسمية بعضها، كما أن بعضها الآخر لم يرد إطلاقاً بين أيدينا من هذا الشعر.

فمن ذلك اسم "إلال"، إذ نُقِل عن الزَّبير بن بكَّار أن الإلال ككِتاب: البيت الحرام، وبه فسَّر النابغة الذبياني(٥١):

بِمُصْـــطَحِبَاتٍ مـــن لَصـــافٍ وثَبْـــرةٍ   يَـــــزُرْن إلالاً سَـــــيْرُهُنَّ تَـــــدافَعُ

غير أن الباحث في الروايات العربية القديمة والأشعار الجاهلية التي ذكرت إلالاً يجد أنها تقصد به جبلاً بعرفات، وقد يقصدون به عرفات كلَّها(٥٢). وبهذا المعنى أورده الطُّفيل الغَنَوِيُّ في شعره، مصوراً الحجاج على إبلهم في عرفات، وهم محرمون، قد اغبَّرت شعورهم، رافعين أصواتهم بالتلبية(٥٣):

يَـــــزُرنْ إلالاً لا يُنَحِّـــــبِن غَيْـــــرَه   بكـــلّ مُلَـــبٍّ أشـــعثِ الـــرأسِ مُحْـــرِمِ

ومن ذلك اسم "الدُّوار" بفتح الدال وضمها، وبتضعيف الواو مع فتحها، وبفتحها مع عدم التضعيف، وروي نقلاً عن بعض العلماء القدماء أنه يطلق على الكعبة(٥٤)؛ وقد ورد هذا اللفظ لدى امرئ القيس في معلقته، حيث شبَّه إناث البقر بفتيات عذراوات، يرتدين الأثواب الطويلة، وقد لزِمْنَ الدَّوار(٥٥):

فَعَـــنَّ لنــــا سِـــرْبٌ كــــأنّ نِعاجَـــهُ   عَـــذَارى دَوارٍ فـــي المَــــلاءِ المُـــذَيَّلِ

وقد شُرِح الدَّوار في بيت امرئ القيس بأنه نُسُك كانوا في الجاهلية يدورون حوله(٥٦)، ومما يؤكد هذا ما روي أيضاً من أنه صنم كانت العرب في الجاهلية تنصبه وتدور به(٥٧). والأرجح لدينا أنه يطلق على كل صنم يُدار حوله، ولا يختصّ بصنم معين، ولعلّ ما يزيد قناعتنا بأنه ليس من أسماء الكعبة أن الفعل "دار" لم يرد استعماله في الدلالة على السير حول الكعبة، وإنما خُصّ ذلك بالفعل "طاف"، وإلى ذلك يشير ابن الكلبي حينما قال: "وكانت للعرب حجارةٌ غير منصوبة، يطوفون بها، ويعترون عندها، يسمُّونها الأنصاب، ويُسمُّون الطَّواف حولها الدّوار"، ويستشهد على ذلك بقول عامر بن الطُفيل، وكان أتى غَنِيَّ بن أعصرَ يوماً، وهم يطوفون بُنصُبٍ لهم، فرأى في فتياتهم جمالاً، وهن يطفن به(٥٨):

ألا يـــــا ليــــتَ أخــــوالي غَنيّـــــاً   علـــــيهم، كلَّمـــــا أمســــوا، دَوَارُ

ومن تلك الأسماء التي اختلف فيها اسم "بَكَّة"؛ فقد ذكرت بعض الروايات أنه اسم للكعبة(٥٩) غير أن أكثر الأقوال يشير إلى أنه من أسماء مكَّة المكرمَّة"؛ فقد ورد أنها كانت تسمَّى "بكَّة" لأنها تَبكُّ أعناق الجبابرة(٦٠). وعلى أنها اسم مكة أيضاً جاء في قوله تعالى: ﴿إنّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاس للَّذي ببكة مُباركا وهُدىً لَلعالَمين﴾(٦١).

وثمة أسماء أخرى للكعبة نصّت عليها بعض الروايات العربية؛ بَيْدَ أنها لم ترد في نصوص شعرية يمكن أن تؤكد أنها تسميات جاهلية؛ فمن ذلك ما ورد أن البيت الحرام سُمى بـ" القادس"، وهو يدل على التقديس والتطهير(٦٢)، وكذلك سمي ب، "ناذر"(٦٣)، ولعله يدل على التخويف من أن يمسه أحد بسوء. وسميت الكعبة أيضاً بـ "القرية

القديمة"[٦٤] ومن الواضح أن الاسم يدل على أنها موجودة ومبنية منذ أقدم العهود.

ومن ذلك كله نجد أن الكعبة المشرفة قد حظيت بتسميات متعددة ومتنوعة، تنبئ، في معظمها، عن مكانتها الرفيعة في نفوس العرب الجاهليين، وعن مدى تعظيمهم وإجلالهم لبيت الله الحرام. ولعلّ أغلب تلك التسميات إنما كانت في البداية صفات تطلق على الكعبة المشرفة أو على البيت، ثم أصبحت مرادفات لهما، ومن ثم أصبحت أسماء أعلام خاصة بهما.

ثانياً: البناء وتاريخه

من المسلم به في كتب التراث أن كعبة مكة كانت أهم البيوت المقدسة لدى العرب الجاهليين، ولا سيما لدى قريش وأهل مكة، فقد أجمعوا على تعظيمها والحج إليها، وكانت عندهم أعلى مكانة من الأوثان أو الأصنام جميعاً؛ إذ إنهم عبدوا أوثاناً وأصناماً مختلفة؛ ولم يجتمعوا على عبادة واحد منها، كما اجتمعوا على تعظيم الكعبة.

ومرد ذلك يعود إلى أنهم عَدُّوها بيتَ اللهِ الذي يُقِرُ معظمهم بوجوده، وبأنه إله الكائنات ورب الأرباب، وقد عبرت آيات عدة من الذكر الحكيم عن إقرار المشركين هذا، على نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿ولِئنْ سَألْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّماوات والأرض، وسخّر الشّمْس والقَمر، ليقُولن اللهُ، فأنّى يُؤفَكُون﴾[٦٥]، وفي قوله عزّ وجل: ﴿ولَئنْ سَألْتَهمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيقُولُنّ الله، فأنى يُؤفكُون﴾[٦٦].

ولكن متى بُنيت الكعبة المشرفة؟ ومتى بدأ تعظيم العرب لها؟ وكيف انحرفوا عن التوحيد لله رب البيت إلى الشرك به وعبادة الأوثان معه؟.

لا يعرف تحديداً متى بدأ تعظيم العرب القدماء للكعبة؛ بيد أن الروايات العربية تشير إلى أن أهميتها، وانتشار أمرها، والحج إليها، كان منذ بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لها[٦٧]. وقد عرض القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وإذْ يرفع إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ من البَيْتِ وإسْماعِيلُ ربّنَا تَقَبّلْ مِنّا إنك أنْتَ السّميعُ العَليم﴾ [٦٨]. وقد مرّ بنا قوله جلَّتْ عظمته: ﴿وإذْ بوّأنْا لإبراهِيمَ مَكان البيْتِ أن لا تُشرِكْ بيْ شيئاً وطهِّرْ بَيْتيَ

للطّائفين والقائِمين والرُكّعِ السُّجُود﴾[٦٩].

ويروى أن الكعبة كانت قبل إبراهيم عليه السلام، فقد ورد أن البيت كان موجوداً قبله بزمن طويل؛ حتى إن بعض الروايات ترجع بناء الكعبة إلى آدم، أبي البشر، عليه السلام[٧٠]. ويبدو أن مما استندت عليه هذه الروايات الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ إنَّ أول بيْتٍ وُضِع للنّاسِ لَلَذّي ببكّةَ مُباركاً وهُدى للعالَمِين﴾[٧١].

وعلى ذلك فإن عمل إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، اقتصر على تجديد البناء، وكان أهل مكة يعيدون بناء الكعبة، أو يجددون ما انهدم منّه، كلّما دعت الحاجة إلى ذلك؛ فقد ورد أنه قد جُدّد بناؤها في عهد جُرْهم لسيلٍ، كان قد هدمها[٧٢]، وفي عهد قُصيٍّ بن كِلابٍ أعيد تجديد البناء[٧٣]، ثم استمرت على ذلك إلى قُبيل الإسلام، حيث شبّ حريق فيها، وجاء سيل، فزعزع جدرانها، فأعادت قريش بناءها[٧٤].

وقد أشار الأعشى في شعره إلى بناء سيّد جُرْهم لها، وإلى ما فعله قُصَيٌّ بن كلاب من تجديد أيضاً، وذلك في معرض القسم وتوكيد القول[٧٥]:

فإنَّي، وثوبَيْ راهبِ اللُجِّ والتي   بناها قُصيٌّ والمضاضُ بنُ جُرْهُمِ

كما ذكر زهير بن أبي سلمى بناء جُرْهُم، ومن بعدهم قريش، للكعبة، في معلقته، مؤكداً كلامه بالقسم أيضاً، على نحو ما مر بنا من قوله[٧٦]:

فأقسمت بالبيتِ الذي طاف حولَهُ   رجالٌ بَنّوهُ من قريشٍ وجُرْهُمِ

ويذكر عبدالله بن الزّبعْرى جرهماً وعاداً على أنهم من الأقوام الذين كانوا في مكة قديماً، وذلك في قوله[٧٧]:

كانـــتْ بهـــا عـــادٌ وجُـــرْهُم قَـــبلَهمْ   واللـــهُ مـــن فـــوقِ العِبـــادِ يُقيمُهـــا

وفضـلاً عن عاد وجرهم فإن ثمة روايات تشير أيضاً إلى العماليق الذين نزلوا بمكة، وقدَّسوا الكعبة، بل يقال إنهم جددوا بناءها، وثمة شعر يُنسب لرجل من جُرْهم مع قبيلة عاد؛ مخاطباً فيه عمْرو بن لُحي الذي كان من ظلمه أن غيّر ما كان عليه العرب من توحيد(٧٨):

يـــا عمـــرو لا تَظلُـــمْ بمـــ   ـــكّةَ إنهـــا بلـــدٌ حـــرامُ
ســـائلْ بعـــادٍ أيْـــن هـــمْ   وكـــذاك تُخْتَـــرَمُ الأَنـــامُ
وبنـــي العمـــاليق الذيْـــ   ـــنَ لهـــم بهـــا كـــان السَّـــوامُ

وتنصّ روايات أهل الأخبار على أن الكعبة كانت البيت المقدس الوحيد الذي كان يحج إليه العرب، أتباع ديانة إبراهيم، عليه السلام، التوحيدية؛ وقد ظلّ الأمر على ذلك إلى أن نُصِبتْ الأوثان حول الكعبة، وفي جوفها؛ فلم يعد ربُّ البيت منفرداً بالعبادة، وإنما أصبح له، سبحانه، وسطاء وشركاء من آلهة الأوثان والأصنام.

وتؤكد أخبار كثيرة أن نشأة الشرك في الحجاز تعود إلى ما كان من تعظيم العرب الشديد للكعبة والحج إليها، والطواف بها؛ ذلك أنهم، حين كانوا ينزحون عن مكة، يبادرون إلى أخذ أحجار من الحرم، فيجعلونها رموزاً مادية للكعبة، فيطوفون حولها كتطوافهم بالكعبة، ومع مرور الزمن تحولوا إلى عبادة الأوثان والأنصاب؛ بَيْدَ أنهم لم ينسوا الحج وشعائره ومناسكه التي كانت على عهد إبراهيم، فظلوا متمسكين ببقايا منها؛ كتعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة إليه، والوقوف على عرفة والمزدلفة، وإهداء البدن، يقومون بذلك، إلى جانب ما يقدمونه لأوثانهم عن عبادات.

وكان ابن الكلبي من أوائل العلماء الذين تحدثوا عن هذا الأمر، إذ أورد نصاً، في

هذا المجال، تداوله كثير من القدماء الذين تحدثوا عن الكعبة ونشأة الشرك في مكة والحجاز، وجاء فيه: "أنَّ إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، لمّا سكنَ مكّة وَوَلَدَ له بها أولاد كثيرٌ، حتى ملؤوا مكّة، ونَفوا مَن كان بها من العماليق، ضاقتْ عليهم مكّة، ووقَعتْ بينهم الحروبُ والعداواتُ، وأخرج بعضُهم بعضاً، فَتَفسّحوا في البلاد التماساً للمعاش.

وكان الذي سلَخَ بهم، إلى عبادة الأوثان والحجارة، أنه كان لا يظعُنُ من مكّة ظاعِنٌ إلاّ احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبَابّة بمكّة، فحيثما حَلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تَيَمُّناً منهم بها، وصَبَابةً بالحرم وحباً له. وهم بَعْدُ يعظِّمون الكعبة ومكّة، ويحجُّون ويَعْتَمِرُون، على إرْث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ثم سلخ ذلك بهم إلى أنْ عَبَدوا ما استحبُّوا، ونسُوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره؛ فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قَبْلهُم...وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتَنَسَّكون بها: من تعظيم البيتِ، والطواف بِه والحج، والعُمْرَةِ، والوقوف على عَرَفَة والمُزْدلِفةِ، وإهْداء البُدْنِ، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه"(٧٩).

وروى ابن هشام عن ابن إسحاق رواية مشابهة تماماً(٨٠) كذلك أورد الأزرقيُّ الرواية نفسها(٨١).

وتكاد الروايات العربية القديمة تجمع على أن عمرو بن لُحيّ الخُزاعي، الذي كان قد تولى أمر مكة وولاية البيت، بعد أن قاتل جُرْهماً، بمساعدة بني إسماعيل عليه السلام، ونفاهم من مكة(٨٢)، وهو أول من غير ديانة إبراهيم التوحيدية وأدخل الأصنام إلى مكة ووضعها قرب الكعبة، وأمر العرب بإشراكها مع الله، سبحانه وتعالى، في العبادة(٨٣). ويبدو أنه لقي معارضة قوية من جراء انحرافه عن ديانة إبراهيم الحنيفية، وقد ظل صدى تلك المعارضة يتردد عبر أجيال طويلة؛ إذ صورت بعض الأشعار، على نحو ما مر بنا من الشعر السابق، وعلى نحو أيضاً ما روي لشَجْنة بن خَلَفِ الجُرْهُميِّ من شعر، يُسفِّه فيه ما أحدثه عمرو بن لُحي من أصنام وأنصاب حول

الكعبة، وما أدَّعاه من شركها بالله عز وجلَّ، مقرراً بأنه تعالى سينتقم منه ومن قومه، وسيزيل ولايتهم للبيت الحرام(٨٤).

يـا عمـرُو إنّـك قـد أحـدثتَ آلهـةً شَـتّى حـول البيـت أنصـاباً
وكـان للبيـتِ ربٌ واحـدٌ أبـداً فقـد جعلـتَ لـه فـي النـاس أربابـا
لَتَعْـرِفَنَّ بـأنَّ اللـه فـي مهَـلٍ سيصـطفي دونكـم للبيـتِ حُجّابـا

وسواء أكان العرب القدماء قد تعبّدوا في البداية لحجارة، مأخوذة من الحرم أم أنهم قد تعبدوا لأوثان وأصنام مجلوبة، من خارج مكة، فإنهم ظلوا يعتقدون أن الكعبة بيت الله، وأنها ليست صنماً كباقي الأصنام؛ مما يدل على اعتقادهم في أنها وسيلة تقربهم إلى الله، ربِّ الكعبة وحاميها؛ وقد ورد أن عددها بلغ ما يقارب ثلاثمئة وستين نُصُباً، عند فتح مكة(٨٥). وقد أشار فَضَالة بن عُمَيرٍ الليثي إلى ما جرى من تحطيمها، يوم فتح مكة، مبيناً انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على المشركين، وانتشار نور الحق، والقضاء على ظلام الباطل، وذلك في قوله، رافضاً دعوة امرأته التي ما زالت على شركها(٨٦):

قالـتْ: هلُـمَّ إلـى الحـديثِ فقلـتُ: لا يـأبى عليـكِ اللـهُ والإسـلامُ
لَـوْ مـا رأيـتِ محمـداً وقبيلـهُ بـالفتح يـوم تكسّـرُ الأصـنامُ
لرأيـتِ ديـن اللـهِ أضـحى بَيِّنـاً والشـركُ يغشـى وجهَـهُ الإظـلامُ

ويتصل الحجر الأسود بالكعبة اتصالاً وثيقاً، وكان له كثير من قدسيتها، لدى العرب القدماء، وهذه القدسية كانت تعلو في أحايين كثيرة على قدسية الأصنام؛ وممّا يؤكد أن أهل مكة اختلفوا فيمن يحمله عند بناء الكعبة، ولم يذكر أنهم اختلفوا في حمل أي صنم كان من أصنامهم. ولعل هذا السبب هو الذي دفع "فلهوزن" إلى الافتراض بأن قدسية البيت لم تكن من الأصنام التي كانت حوله وداخله، وإنما كانت من الحجر

الأسود المقدس لديهم، بل إنه هو الذي جلب القدسية للبيت[٨٧]، وهذا الافتراض يستند إلى أن قدسية الكعبة أتت من الأصنام التي كانت حولها، وليست لأنها مقدسة بذاتها؛ وهو أمر لم تشر إليه أي من الروايات العربية، أما الحجر الأسود فشأنه شأن الكعبة، إذ وجوده وقدسيته مرتبطان بوجودها وقدسيتها، ولعل ما يدعم ذلك أن العرب كانت تقسم بالبيت والحجر الأسود معاً؛ فقد ورد في إيمانها أنها كانت تقول "ولا وربّ البيت والحجر"[٨٨].

وقد صور أبو طالب، عمُّ الرسول الله صلى الله عليه وسلم، في القصيدة اللامية المعزوة له، إحاطة الحجيج وزائري مكة بالحجر الأسود، واستلامهم له، ومسح أيديهم به ولا سيما في بداية النهار وقبل غروب الشمس[٨٩]:

وبـــــالحجرِ المُسْـــــوَدِّ إذ يَمْســـــحُونَهُ   إذا اكتَنَفُـــــوه بالضُّـــــحَى والأصَـــــائِلِ

وعلى ذلك فإن العرب الجاهليين كانوا يعتقدون أن تاريخ بناء الكعبة المشرفة يعود إلى أزمان سحيقة في القدم، وقد زاد هذا الاعتقاد من إجلالهم وتقديسهم لها؛ ولعلهم كانوا على قناعة بأن بدء وجودها مرتبط ببدء وجود البشر الذين فطرهم ربُ الكعبة وإله البيت.

ثالثاً: الحج والعمرة

الشائع في الأخبار والروايات العربية أن الحج على عهد إبراهيم، عليه السلام، كان يعني قصد كعبة مكة، والطواف بها، والتلبية، وقضاء بقية المناسك؛ وقد دعا إليه إبراهيم الخليل، وجعله أصلاً في عقيدته التوحيدية، ومن المرجح أنه جعله فرضاً ينبغي على المرء أن يقوم بقضائه مرة في حياته.

ويؤكد القرآن الكريم ما ورد في الأخبار والروايات، عن دعوة إبراهيم عليه السلام؛

وذلك في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وإذْ بَوَّأنَا لإبْراهيمَ مكان البيتِ أن لا تُشْرِكْ بي شَيئاً وطهِّرْ بَيْتِيَ للطّائِفين والقائِمينَ والرُكّع السُجُودْ. وأَذِّنْ في الناس بالحجِّ يأتُوك رِجالاً، وعلى كلِّ ضامر يأتين من كُلِّ فجٍّ عميق﴾(٩٠). وكذلك قوله تعالى ﴿وعَهِدنْا إلى إبْراهيم وإسماعيل أنْ طَهِّرا بَيْتيَ للطائفينَ والعاكفينَ والرُكَّعِ السُّجوُدِ﴾ (٩١).

وقد مرَّ بنا كيف أن العرب الجاهليين، مع شركهم، ظلوا متمسكين بكثير من شعائر ديانة إبراهيم عليه السلام، وكان تعظيم الكعبة والحج إليها، من أبرز تلك الشعائر، فعلى الرغم من تعبدهم لأصنام مختلفة، في أماكن متفرقة من الجزيرة؛ إلا أنهم كانوا جميعاً يعظّمون البيت الحرام، ويحجّون إليه في شهر حرام معلوم، وفي أيام معدودات(٩٢).

وقد حفل الشعر الجاهلي، في مواضع عدة منه، بالحجّ وتصوير الحجيج ركباناً وراجلين، محرمين في أثوابهم المميزة، يجأرون بالتلبية والدعاء إلى الله ربّ البيت الذي يقصدونه؛ فضلاً عن افتخار بعض الشعراء بسقاية الحجاج ورعايتهم.

فمن ذلك ما أورده أبو طالب في قصيدته اللامية من ذكر لحجاج بيت الله الحرام، الذين يأتون ممتطين المطايا أو مترجلين عنها، متعوذاً بالله وبهم ممن يريدون أن ينالوه وأهله بسوء(٩٣):

أعـوذ بـربِّ النـاس مـن كُـلِّ طـاعنٍ   علينـا بسـوءٍ أو مُلِـحٍّ بباطـلِ
ومَـنْ حـجَّ بيـتَ اللـهِ مـن كُـلِّ راكـبٍ   ومـن كـلّ ذي نَـذْرٍ ومـن كُـلِّ راجِـلِ

وتعوّذ أمية بن أبي الصّلت برب الحجيج أيضاً الذين نَووا قضاء ركن أساسي من أركان دينهم، راجين عفو الله ورضوانه(٩٤).

إنـــي أعــوذُ بِمــنْ حــجَّ الحجــيجُ لــهُ   والرّافعـــون لـــدين اللـــه أركانـــا
مُســـلِّمين إليـــه عنـــد حجِّهـــمُ   لـــم يبتغـــوا بثـــوابِ اللـــه أثمانـــا

وقد ضمّن أوس بن حجر في شعره إشارة إلى ثياب الحجّاج المُحرمين المتضرعين إلى الله، مخاطباً أحدهم بأنه لن يهجوه أبداً[٩٥].

هِجـاؤك، إلا أنّ مـا كـانَ قـد مضـى   علـــيَّ كـــأثوابِ الحَـــرَام المُهَيْـــنِمِ

واشتملت تلبيات بعض القبائل على ذكر الحج والحجيج، معبّرة عن الخضوع لله العلي القدير، وطلب رضوانه من خلال الحج إلى بيته الحرام؛ على نحو ما نجد في تلبية قبيلة عَكّ[٩٦].

عَـــــكّ إليـــــك عَانيَـــــهْ   عبـــــــــادُك اليمانِيـــــــــهْ
كَيْمَـــــا نحـــــجّ الثّانيـــــه   علـــــى الشِّـــــدادِ النّاجِيـــــهْ

كما ورد في تلبية الأزد[٩٧]:

واللـــهِ لـــولا اللـــهُ مـــا اهتَـــديْنا   نحُـــجُّ هـــذا البيـــتَ مَـــا بقينـــا

وكذلك ما جاء في تلبية جُرهُم[٩٨]:

واللـــهِ لـــولا أنـــتَ مـــا حججْنـــا   مكّـــــه والبيـــــتَ ولا عَجَجْنـــــا

وجعل بعض الشعراء رعاية الحجيج، وسقايتهم خاصة، عنصراً بارزاً من عناصر

الفخر، ومكرمة مهمة من المكارم التي يُعتدّ بها؛ لأن في إكرامهم مقربة إلى الله ربّ البيت، ونيلاً لرضوانه، فضلاً عن إشاعة السمعة الحسنة، وكرم المعاملة لأهل مكة.

وآية ذلك ما نجده فيما روي من رثاء أميمة لأبيها عبد المطلب، جد الرسول صلى الله عليه وسلم، تذكر فيه سجاياه الحميدة وفي مقدمتها سقاية الحجيج(٩٩):

ألا هَلَــك الراعــي العشــيرة ذو الفَقْــدِ وســاقي الحجـيجِ والمحـامي عـن المجـدِ

ورأى مَطرود بن كعب الخُزاعيُّ أنَّ عديَّ بن نَوْفَلٍ قد بلغ الذروة في الكرم والغاية فـي الجـود عنـدما جعـل سـقاية بـين الصَّـفا والمـروة، يسـقي فيهـا الحجـيج اللـبنَ والعسل(١٠٠):

ومـــا النِّيـــلُ يـــأتي بالسّـــفِين يكفُـــهُ بـــأجود سَـــيْباً مـــن عَـــدِيٍّ بـــنِ نَوْفَـــلِ
وأنْبَطـــتَ بـــين المِشْـــعَرَينِ ســـقايةً لحجَّـــاجِ بيـــتِ اللـــه أفْضَـــل مَنْهَـــلِ

وافتخر مسافر بن أبي عمرو بن مناف بمناقب قومه الحميدة التي لم تقتصر على سقاية الحجيج، وإنما شملت رفادتهم وإطعامهم، وحفظهم منذ القديم لبئر زمزم، مما جعلهـم يتبـوأون المنزلـة العاليـة والمكانـة الرفيعـة فـي الفعـال الحميـدة والمكرمـات المجيدة(١٠١):

ورِثْنَـــا المَجـــد مـــن آبـــا ئنـــا فَنَمـــى بنـــا صُـــعُدا
ألـــمْ نَسْـــق الحَجـــيج ونَنْـــ ـــحَرُ الدُّلاَّفَـــةَ الرُّفُـــدا

ولم يكن العرب الجاهليون يقصدون الكعبة المشرفة للحجّ فقط، وإنما كانوا يأتونها

في غير وقت الحج، محرمين كإحرامهم للحج، وصانعين في مكة ما يصنعونه وقت حجهم؛ فإذا قاموا بذلك دُعُوا عمّاراً، وسُمِّيت زيارتهم تلك بالعُمْرة، والخلاف الوحيد في إحرامهم أنهم كانوا يحلقون رؤوسهم إذا قصدوا العمرة، في حين أنهم في الحج يلبّدون شعورهم، ولا يحلقونها إلا عند الانتهاء من الحج[١٠٢].

ولا يجوز العمرة في أوقات الحج، فلا يصح أن يقصد أحد العرب مكة معتمراً، حين يكون الناس محرمين للحج، وتشير الروايات إلى أنهم كانوا يَعُدّون فعل ذلك من أكبر الآثام، ويرون أن أفجر الفجور العمرةُ في أشهر الحج، وكانوا يقولون: "إذا برا الدُبُرْ، وعفا الوبر، ودَخَلَ صَفَرْ، حُلَّت العُمْرَةُ لَمنْ اعتَمَرْ"[١٠٣].

وقد يأتي العمّار فرادى، وقد يأتون في جماعات يقودهم من يعلمهم مناسك العمرة. وهذا ما روي عن عُمَيٍّ من أنه كان رجلاً من عَدْوان، يفتي للناس في الحج، فأقبل قاصداً مكة معتمراً، ومعه ركبٌ، حتى نزلوا بعض المنازل، في يوم شديد الحر، وكان بينهم وبين مكة مسيرة ليلتين، فقال لقومه، وهم في نحر الظهيرة: مَنْ أتى مكة غداً في مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين؛ فوثبوا يصكون صكّة شديدة، حتى أتوا مكة في الغد، في مثل ذلك الوقت، فضرب مثلاً، فقيل: "أتانا صكّةَ عُميٍّ" إذا جاء في الهاجرة الحارة. وقال في ذلك كَرِب بن جَبْلة العدواني، واصفاً الإبل بمن عليها من المعتمرين، وهم يصكونها صكّاً شديداً لكي تزيد في سرعتها، حتى وصلت مكة، وطافت بالكعبة المشرفة، قبل أن تتوقف، وتَحُلّ أعنتها[١٠٤]؛

وصَكَّ بها نَحْرَ الظهيرةِ غائراً عُمَيٌّ، ولم يَنْعَلْنَ إلا ظلالَها
وجِئْنَ على ذات الصِّفاحِ كأنَّها نَعَامٌ تُبغِّي بالشَّظِيِّ رئالَها
فَطَوّفْنَ بالبيتِ الحرام، وقُضِّيتْ مناسكُها، ولم تَحُلَّ عِقالَها

ويظهر من بعض الأخبار أن ثمة تجاراً من الذين يَأتون مكة ببضاعتهم، كانوا يحرمون للعمرة؛ ويؤكد ذلك ما روي من أن العاص بن وائل هضم حق تاجر من زُبَيْد،

أتى ببضاعته مكة معتمراً، فاستغاث الزبيدي ببعض أشراف قريش، فأبوا أن يعينوه، فأوفى على جبل أبي قُبَيْسٍ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته(١٠٥):

يـــا آل فهْـــرٍ لمظلـــومٍ بضـــاعتُهُ   بـــبطنِ مكّـــةَ نـــائي الـــدارِ والنّفَـــرِ
ومُحْـــرِمٍ أشْـــعَثٍ لـــم يقـــضِ عُمْرَتَـــهُ   يـــا للرجـــال وبـــين الحِجْـــر والحَجَـــرِ
إنّ الحـــرام لَمـــن تمـــتْ كَرامتُـــهُ   ولا حـــرام لثـــوابِ الفـــاجرِ الغَـــدِرِ

وقد استمرت العمرة في الإسلام، وظلت لا تجوز في أوقات الحج، ولكن بعد أن طهرها الدين الحنيف من كل شائبة من آثار الشرك والجاهلية.

وكان العرب الجاهليون؛ سواء أكانوا حجّاجاً أم معتمرين؛ حينما يتوجهون قاصدين الكعبة المشرفة، يُهلّون، ويُلبّون، ويرفعون أصواتهم بالأدعية، ومختلف الابتهالات، ولا سيما عندما يكونون حجاجاً، مقبلين في جماعات؛ وقد صورت بعض الأشعار إقبال الحجيج وارتفاع أصواتهم بالتلبية والدعاء؛ على نحو ما نرى لدى الشنفري الأزدي في قوله(١٠٦):

قَتَلْنـــــا قتـــــيلاً مُهْـــــدِياً بُملَبِّـــــدٍ   جِمـارَ مِنـىً وسْـطَ الحجـيج المُصَـوِّتِ

وكذلك أشار النابغة الذبياني إلى حجاج بيت اللهِ الحرام الذين يبتهلون ويتضرعون بعرفة، في أثناء قضائهم مناسك الحج وشعائره(١٠٧):

فـــلا لعَمْـــرُ الـــذي أثنـــي عليـــه   ومـــا رفـــع الحجـــيجُ إلـــى إلالِ

وتنص الروايات العربية على أن تلبية الحجاج التي كانت على عهد إبراهيم عليه السلام هي:

لَبيّـــــكَ اللّهُـــــمّ لَبيْـــــك لَبّيْـــــك لا شـــــريكَ لـــــكْ

ولكن تلك التلبية التوحيدية لم تبق على ما هي عليه، وإنما طرأ عليها تغيير في العصر الجاهلي، يتلاءم وعقيدة الإشراك، فأصبحت، فيما يروى(١٠٨):

لبيـــــك اللهـــــم لبيـــــكْ لبيـــــك لا شـــــريكَ لـــــكْ
إلا شـــــريكٌ هـــــو لـــــكْ تملُكُـــــهُ ومـــــا ملـــــكْ

ويرجع أن هذه التلبية كانت تخص قريشاً وأهل مكة(١٠٩)، أما بقية القبائل فقد وردت تلبيات مختلفة لمعظمها(١١٠).

وما إن يصل الحجاج أو المعتمرين إلى الكعبة حتى يبدؤوا بالطواف حولها؛ ذلك أن الطواف بالكعبة يُعد من أهم الشعائر لدى العرب الجاهليين، إذا لم يكن أهمها إطلاقاً؛ والروايات العربية تشير إلى أنه انحدر إليهم من عهد إبراهيم عليه السلام، مع ما انحدر إليهم من بقايا شعائر الديانة التوحيدية(١١١)، وقد مرّ بنا كيف أن حبّ الكعبة والصبابة بها هما اللذان أفضيا بالعرب النازحين من مكة إلى أن يأخذوا أحجار الحرم، ويطوفوا بها كتطوافهم بالكعبة(١١٢)، مما يدل على أن الطواف سنة قديمة، تعود إلى أزمان بعيدة قبل الجاهلية.

وقد ألمحت بعض الأشعار الجاهلية إلى الطواف، كما رأينا ذلك عند زهير بن أبي سلمى، وأنه كان على زمن جرهم(١١٣):

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَهُ   رجالٌ بَنَوه من قريشٍ وجُرْهُمِ

وكذلك جاء ذكر طواف جرهم بالكعبة وولايتهم لها، بعد إبراهيم عليه السلام، فيما نسب إلى عمرو بن الحارث الجُرْهمي في قوله(١١٤):

وكُنا ولاةَ البيت من بعد نابِتٍ   نطوفُ بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ

وللطواف بالبيت طريقة معينة كان يتبعها الطائف، وهي أنه يبدأ بالحجر الأسود، فيستلمه، يمسحه أو يقبله، ثم يأخذ عن يمينه، ويطوف، جاعلاً الكعبةَ عن يمينه أيضاً، سبع مرات، وهو يلبِّي بصوتٍ مرتفعٍ، فإذا ختم طوافه، سبعاً، استلم الحجر الأسود مرة أخرى، وخرج من المسجد(١١٥). ويبدو أن الطواف بالكعبة لم يكن له وقت محدد، كما لم يكن مقتصراً على الحجاج والمعمرين، فحينما يقدم أحد من العرب إلى مكة، يقوم بالطواف حول البيت سبعاً، ثم يتوجه إلى عمله وقضاء حاجته(١١٦).

بَيْدَ أن كثيراً من الحجاج لم يكونوا يعودون إلى ديارهم بعد الإفاضة والنحر ورمي الجمار والطواف بالبيت، وإنما كانوا يبيتون في مكة ثلاثة أيام، يطوفون فيها حول الكعبة؛ وقد دعيت تلك الأيام بأيام التشريق(١١٧).

وقد أشار حُذَيْفَة بن غانم إلى بقاء الحجيج تلك الأيام في مكة؛ حيث قيدوا مطاياهم في أماكن محددة، لأجل الطواف بالكعبة، وذلك في قوله(١١٨):

ثلاثة أيامٍ تظلُ ركابُهمْ   مُخَيَّسَةً بين الأخاشِبِ والحِجْرِ

ولا ريب في أن الطواف ظلّ في الإسلام أهم شعيرة من شعائر الحج والعمرة، بل لا يتمّان ويكملان إلا به؛ وقد أشارت إليه آيات قرآنية عدة، على نحو قوله تعالى: ﴿ثُمّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ولْيُوفُوا نُذُورهُمْ ولْيَطوّفُوا بالْبَيْتِ العَتِيْق﴾(١١٩).

رابعاً: الكسوة والهدايا

فضلاً عن الحج والعمرة والطواف فإن من مظاهر تعظيم الكعبة المشرفة، لدى العرب الجاهليين، ما كان يُقدم إليها من كسوة، وما كانت تُخَص به من هدايا ونذور، تقربه منهم إلى الله العلي القدير وطلباً لرضوانه وغفرانه.

فأما الكسوة فكانت تُتَخير غالباً من البرود اليمنية الثمينة، ويبدو أنها سُنّةٌ قديمة جرى عليها العرب؛ ومصداق ذلك ما تطالعنا به المصادر القديمة من روايات تشير إلى أن تُبّعاً الثالث، وهو من كبار الملوك الحميريين، أهدى كسوة ثمنية جداً للكعبة؛ مما جعل هذه الحادثة علامة مميزة في أخبار العرب قبل الإسلام، حتى إنها وردت في حديث شريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن أول من كسى الكعبةَ سَعْدٌ اليمانيُّ"(١٢٠).

وحلفت بعض الأشعار بهذه الكسوة، حتى لنجد بعض الشعراء ينظم أبياتاً على لسان تُبّع، يفتخر فيها بما أهداه إلى الكعبة من حِلل يمنية فاخرة، وبما جهز بابه من مفتاح كبير، لتغلق الكعبة به ويمنع الدخول إلى داخلها(١٢١):

وكَسَوْنا البيتَ الذي حرّم اللهُ ملاءً مُعصّباً وبُرُودا
فَأَقَمْنا به من الشّهرِ عَشْراً وجَعَلْنَا لبابهِ إقْليدا

كما ذكرت سُبَيْعَةُ بنت الحبِّ ما كان من شأن تُبّعٍ وكسوته الكعبةَ بالثياب اليمنية الثمنية، فقال مشيرة إلى حرمة مكة(١٢٢):

ولقد غزاها تُبّعٌ فكسا بنيَّتَها الحبيرْ
وأذلّ ربِّي مُلْكهُ فيها فأوفَى بالنذورْ

وتضمنت أشعار أخرى ذكر أردية الكعبة وأستارها؛ سواء أكان ثمة تحديد لنوعية

تلك الأردية أم كان ذلك مجرد الإشارة إليها؛ فمن ذلك ما وجدناه لدى قيس بن الخطيم من قسم بالله ربِّ الكعبة التي جُلَّلت ببرود اليمن وثياب الخُنُفِ الكتانيَّة، حين قال(١٢٣):

واللـــه ذي المســـجدِ الحـــرامِ ومــا   جُلِّـــل مـــن يَمْنَـــةٍ لهـــا خُنُـــفُ

وحدد نوعيتها أيضاً أبو طالب، في القصيدة اللامية، مشيراً إلى أنها ثياب مخططة يمانية وذلك في معرض تصويره التجائه إلى الحرم، وتمسكه بأثواب البيت، مستغيثاً بربه على قريش، الذين حاولوا إيذاءه، لنصرته ابن أخيه محمداً صَّلى اله عليه وسلم(١٢٤):

وأحضـرتُ عنـدَ البيـتِ رهْطـي وإخـوتي   وأمســـكتُ مـــن أثوابـــه بالوصـــائِل
قيامـــاً معـــاً مســـتقبلين رِتَاجَـــهُ   لـدى حيـثُ يُقضـي حَلْفَـهُ كـلُّ نافِـلِ

وكان مما مدح به حسان بن ثابت قريشاً في الجاهلية أنهم سدنة الكعبة المجلّلة بالأثواب، وذلك في قوله(١٢٥):

كانـــت قـــريشٌ بيضـــةً فتفلّقـــتْ   فـــالمُحُّ خالصُـــهُ لعبـــدِ الـــدَّارِ
ومَنَـــاةُ ربِّـــي خصّـــهُم بكرامـــةٍ   حُجّـــابُ بيـــتِ اللـــه ذي الأســـتارِ

كما تضمنت تلبيةُ عَكٍّ والأشعريين ذكراً لأستار الكعبة التي تغطي سائر جوانبها، فتحجب جدارنها، وتخفيها عن الأنظار(١٢٦):

نحـــــجّ للـــــــرّحمن بيتـــــاً عَجَبـــــا   مُسْـــــــتَتِراً مُضـــــــبّباً مُحجَّبـــــــا

ومن المعروف أن كسوة الكعبة المشرفة بأجمل حلة وأبهاها استمرت في الإسلام، وهي لا تزال جارية حتى عهدنا الراهن، يقوم بها أولو الأمر بمكة تقدمة لله تعالى، وصوناً لبناء الكعبة، وحفاظاً له.

وفضلاً عن الكسوة فإن الكعبة كانت تُخَصُّ بقسم كبير من الهدايا الثمينة والأموال، وكان النصيب الأوفر منها يأتي من النذور، التي كان ينذر الجاهليون لله رب البيت الحرام؛ ولعل من أهم تلك النذور التي قُدمت إلى الكعبة أن يوقف إنسان على خدمتها، طوال عمره؛ فقد روي أن امرأة من جرهم تزوجت أخْزم بن العاص، وكانت عاقراً، فنذرت، إن ولدت غلاماً، أن تتصدق به على الكعبة، عبداً لها يخدمها، ويقوم عليها، فولدت الغوث، فتصدّقت به عليها، فكان يخدمها، وقد ولي الإجازة بالناس، في الحج، لمكانه من الكعبة؛ وقد زعم أن أمه قالت، حين أتّمت نذرها(١٢٧):

إنـــــي جعلـــــتُ، ربِّ، مـــــن بُنيّـــــهْ   ربيطَـــــــــةً بمكّـــــــــةَ العَلَيَّـــــــــهْ
فَبَــــــارِكَنَّ لـــــــــي بهــــــا أَلِيَّـــــــهْ   واجعلْـــــهُ لــــي مِـــنَ صــــالحِ البَرِيَّـــهْ

وثمة روايات وأشعار تؤكد أن تلك الهدايا والأموال كانت تمتاز بحرمة خاصة؛ فهي في حماية رب البيت ورعايته، ومن يأخذ منها شيئاً يتعرض لغضب الله ونقمته؛ ومن ذلك ما افتخر به عمرو بن الحارث الخُزاعي من ولاية البيت بعد جُرْهُم، والدفاع عنه، وحفظ ما يقدم له من الأموال، وعدم المساس بها، خشية من الله وعقابه(١٢٨):

ونحــن وَلِينــا البيــتَ مــن بعــد جُــرْهُمٍ   لَنَمْنَعَـــــهُ مــــن كـــــلِّ بـــــاغٍ وآثِـــــمِ
ونقبـــلُ مـــا يُهْـــدى لـــه، لا نَمُسُّـــهُ   نخَــافُ عِقــابَ اللــهِ عنــد المحــارِمِ

فإذا حدث وجرؤ احد على سرقة الأموال المهداة إلى الكعبة فإنه يُجلّل بثوب من الخزي والعار طوال عمره، ويجرُّ على قومه مثلبةً يُعَبّرون بها دائماً؛ وهذا ما فعله حسان بن ثابت بالحارث بن عامر وقومه بني نوفل؛ لأن الحارث كان فيمن سرق غزالاً ذهبياً، نُذِر للكعبة وأهدي إليها؛ إذ هجاه بقوله(١٢٩):

يا حارِ قد كنتَ لولا ما رُميتَ بِه   للــه دَرُّكَ في عِزٍّ وفي حَسَبِ
جَلّلْتَ قَوْمَك مَخْزاةً ومَنْقَصَةً   ما إنْ يُجلّلُهُ حيٌّ مِنَ العَربِ
يا سالب البيتِ ذي الأركانِ حِلْيَتَهُ   أدِّ الغزالَ فَلَنْ يَخْفى لمُسْتَلِبِ
سائل بني الحارثِ المُزْري بمَعشَرِهِ   أينَ الغزالُ عليه الدُّر من ذَهَبِ
بئس البنون وبئسَ الشيخُ شيخُهُمُ   تبّاً لذلك من شَيْخٍ ومن عَقِبِ

وروي أن عدة أفراد آخرين من أقوام مختلفين، كانوا قد تآمروا على سرقة الغزال، وفي مقدمتهم أبو لهب بن عبد المطلب، وأبو سافع بن عبيد الله الأشعري؛ الذي ذكر سرقة الغزال والعصبة التي سرقته، حين قال(١٣٠):

إنّ الغزال الذي كنتُم وحِليتَهُ   تقنونهُ لخطوبِ الدَّهرِ والغِيَرِ
طافتْ به عُصْبَةٌ من شرِّ قومِهِمُ   أهلِ العُلا والنّدى والبيتِ ذي السَّتْرِ

وكان ممن اشترك في سرقته أبو إهاب بن عزيز من دارم، وقد هجاه حسان بن ثابت بفعلته هذه، في قوله(١٣١):

أبا إهابٍ فبيِّنْ لي حديثَكُمُ   اينَ الغزالُ مُحلَّى الدُرِّ والوَرِقِ

وروي أن منهم من قُطعت يده، عقاباً لسرقته من مال الكعبة[١٣٢]؛ مما يدل دلالة قاطعة على أن الجاهليين كانوا يرون للأموال المهداة إلى الكعبة حرمة كبيرة، وأن المساس بها يعدُّ من أكبر الكبائر، ويلقى منْ يقوم به أشد العقوبات وأقساها.

خامساً: حرمة البيت

لا ريب في أن العرب الجاهليين، وأهل مكة خاصة، قد قدسوا الكعبة تقديساً كبيراً، حتى بلغ من تقديسهم لها أنهم كانوا يحررون العبد الذي يعلو سقفها[١٣٣]، كما كانوا يعتقدون أن عناية الله شديدة تحرسها؛ فالويل كل الويل لمن تسوّل له نفسه أن يخرق حرمتها، إذ يناله عقاب ما بعده عقاب؛ فقد مُسخ إساف ونائلة حجرين؛ لأنهما أتيا حاجين، فارتكبا فاحشة في الكعبة[١٣٤].

أكدت حملة أبرهة وحادثة الفيل تلك الحرمة؛ فأصاب أبرهة الحبشي وجنوده ما أصابهم من الوباء العظيم والهلاك الشامل، حين حاولوا غزوا مكة وتدمير الكعبة بكثرة الجنود وقوة الفيل[١٣٥]؛ على نحو ما عرضه علينا التنزيل المحكم في قوله عز وجل وعلا: ﴿ألم تَر كَيْفَ فعل ربُّكَ بأصحْابِ الفْيلِ. أَلَمْ يَجْعلْ كَيْدَهُمْ في تضْليلٍ، وأرسل عَلَيْهِمِ طَيْراً أبابِيل. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارةٍ مِنْ سِجِّيل فَجَعَلَهُم كَعَصْفٍ مأكُول﴾ [١٣٦].

وقد ألمّ الشعر الجاهلي بهذه الحادثة في مواضع عدة منه؛ على نحو ما نتبينه لدى عبدالله بن الزَبعَرى، حين عبر في شعره عن مدى الحرمة التي تحوط بالكعبة وما حولها، وأن تلك الحرمة ترجع إلى أزمان سحيقة في القدم، وحين صور أيضاً فيه اندحار جيش أبرهة، وارتداده عن مكة، وما كان من إصابة أبرهة ومرضه وحمله إلى اليمن وموته فيها، ومن دون أن يقدر على مس الكعبة بأدنى سوء، وذلك كله لأن الله الكبير المتعال يرعاها ويحفظها، ويمنع عنها كيد الكائدين عبر تاريخها الطويل[١٣٧]:

تَتَكَّلُـــوا عـــن بطـــنِ مكّـــةَ إنهـــا كانـــت قـــديماً لا يُـــرامُ حَريمُهـــا
لـــم تُخْلَـــق الشّـــعرى ليـــاليَ حُرِّمـــتْ إذْ لا عزيـــز مـــن الأنـــامِ يرومُهـــا
ســـائلْ أميـــر الجـــيشِ عنهـــا مـــا رأى ولســـوف يُنبـــي الجـــاهلينَ عليمُهـــا
ســـتون ألفـــا لـــم يؤوبـــوا أرضَـــهم بـــل لـــم يعـــشْ بعـــد الإيـــابِ ســـقيمُها
كانـــت بهـــا عـــادٌ وجُـــرْهُمُ قـــبلَهُم واللــــهُ مـــن فـــوقِ العبـــادِ يُقيمُهـــا

ووجد أُميّةُ بن أبي الصّلت أن من دلائل مقدرة الله تعالى، وصونه لبيته الحرام، ما حدث للفيل، بموضع "المُغمّس"، حين أراد أبرهة وجيشه توجيهه لهدم الكعبة، حيث برك، وأبى أن يقوم، على الرغم من الوسائل الشديدة والمختلفة التي استخدموها معه، وظلّ جاثماً، وكأنه صخرة عظيمة قد انحدرت من الجبل واستقرت على الأرض، وذلك في قوله(١٣٨):

حَـــبَس الفيـــل بـــالمُغَمَّسِ حتـــى ظَـــلَّ يحبـــو كأنّـــهُ مَعقـــورُ
لازمـــاً حَلْقَـــةَ الجِـــرانِ كمـــا قُـــطِّـــر، مـــن صَـــخْرِ كَبْكَـــبٍ، محـــدورُ

وقد زادت حرمتها وعظمت في نفوس العرب وأهل مكة، بعد أن أيقنوا بأن الكعبة تحرسها عناية الله القوية؛ حتى بلغ بقريش الأمر أن ترددوا، حين أرادوا تجديد بنائها وسقفها، إثر الحريق والسيل اللذين أوهنا بنيانها، وانتابهم الفزع من هدم شيء منها، خوفاً من انتقام الله الذي يحميها. فلم يجرؤ على ذلك أحد سوى الوليد بن المغيرة، الذي روي أنه بدأ بهدمها، وهو يقول: "اللّهُمّ، إنا لا نريد إلا الخير"، ومع ذلك لم يساعده أحد في الهدم، إلا بعد أن مضت ليلةٌ، لم يصبه فيها شيء، مما توقعوا أن يحدث له، فاكملوا الهدم معتقدين أن الله العلي قد رضي صنعهم(١٣٩). ويؤكد ذلك أيضاً ما كان من ترددهم كثيراً في قطع أشجار الحرم، عندما أرادوا البنيان حول

الكعبة[١٤٠].

وحرمة الكعبة امتدت لتشمل حرم الكعبة الذي يحيط بها كلها إلى أميال عدة؛ إذ كان يُحرّم فيه القتال، في أوقات الحج وفي غيرها، كما يُحّرم فيه قتل الحيوان، ولا سيما الطيور التي تحط على الكعبة وحولها؛ وآية ذلك ما أشار إليه عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرْهُميّ، فيما روي له من شعر، يصور فيه إجباره على مفارقة مكة، وما أصابه من حزن شديد، وما عبَّر عنه من شدة الشوق والحنين إلى موطنه[١٤١]:

فَسَحّتْ دموعُ تبكي لبلدةٍ بها حَرَمٌ أمْنٌ وفيها المشاعرُ
وتبكي لبيتٍ ليس يُوذَى حمَامُهُ يظلُ بها أَمِناً وفيه العصافرُ
وفيه حوشٌ لا تُرامُ أنيسةٌ إذا خرجتْ منه فليستْ تُغادرُ

وقد رأينا أن النابغة الذبياني قد أشار أيضاً إلى حرمة الطيور والحمام حول الكعبة، لأنها أضحت في جوار الله رب مكة وحاميها[١٤٢]:

فلا لَعَمْرُ الذي مَسّحْتُ كعبتَهُ وما هُريقَ على الأنْصابِ من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطّير تمسحُها رُكبانُ مكّةَ بين الغَيْلِ والسَّعَدِ

وفضلاً عن ذلك فإن أهل مكة، ومن جاورهم من العرب المقيمين حولها، كانوا يرون أن من أعظم الأمر البغي والظلم بمكة، لمكان الكعبة فيها؛ ولم يرد في أي من الروايات أن قتالاً جرى حولها، أو أن شغباً أو ما شابه ذلك قد حدث في حرمها؛ ولعل في تسميات الحرام والمحرّم ما يؤكد مدى الحرمة التي كان يراها العرب الجاهليون لبيت الله؛ وعيسى أن يكون لنا فيما نسب إلى سبيعة بنت الأحبّ من شعر خير دليل وأفضل شاهد على تلك الحرمة التي كانت للكعبة، والتي امتدت لتشمل سكان مكة جميعاً، بل لتشمل الحيوانات من طيور ووعول وظباء وغيرها؛ وذلك من خلال وصيتها لابنها تحذره فيها من الظلم بالحرم خاصة، لأن منْ يرتكبه فيه يأثم إثماً عظيماً، ويواجه عقاباً شديداً ويورد

بنفسه موارد التهلكة والخسران(١٤٣):

أبُنَـــيّ لا تظلـــمْ بمكّـــة لا الصـــغيرَ ولا الكبيـــرْ
واحفـــظْ محَارمهـــا بنـــيّ ولا يغُرنَّـــك الغُـــرورْ
أبنَـــيّ مَـــنْ يظلـــمْ بمكـــةَ يلْـــقَ أطـــراف الشُـــرورْ
أَبُنَـــيَّ قـــد جرّبتُهـــا فوجـــدتُ ظالمهـــا يَبُـــورْ
اللـــهُ أَمَّنهـــا ومـــا بُنِيـــتْ بِعرصـــتها قُصـــورْ
واللـــهُ أمّـــنَ طيرَهـــا والعُصْـــمُ تـــأمنُ فـــي ثبيـــرْ

وقد نبّه القرآن الكريم العرب المشركين على ما كانوا عليه من نعمة الله عز وجل، فقد جعل لهم حرم مكة آمناً سالماً، على الرغم مما كان يجري من اقتتال واحتراب بين القبائل المجاورة له؛ وذلك في قوله جلت عظمته: ﴿أو لَمْ يَروا أَنَّا جَعَلْنَا حرماً آمناً، ويَتُخَطّفُ النّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أفبالباطِلِ يُؤمِنُون وبنِعْمةِ اللهِ يَكْفُرُون﴾(١٤٤).

وهكذا تبينت لنا حرمة الكعبة المشرفة، لدى العرب الجاهليين، وما وقر في نفوسهم من تقديس عظيم لها؛ ولما جاء الإسلام أعلى من مكانتها إعلاءً كبيراً، حين جعلها قبلة المسلمين في صلاتهم وعبادتهم، وحين جعل زيارتها، والحج إليها، والطواف بها، فريضة من فرائض الدين الحنيف؛ على نحو ما تقرره الآية الكريمة في قوله جلّ وعلا:﴿ وللهِ عَلَى النّاس حِجُّ البَيْتِ منِ استطاع إليْهِ سبيلاً، وَمَن كَفَر فإنّ

اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِيْنَ﴾[١٤٥].

الخاتمة

لا بد لنا في ختام بحثنا عن الكعبة المشرفة، من التعرض لتوثيق بعض الأشعار التي وردت في أثنائه والتي قد تظهر عليها ظواهر الصنعة؛ سواء أكان ذلك في سهولة ألفاظها وسلاسة تراكيبها، أم في بساطة صورها، أم في استعمال وزن الرجز في قسم منها؛ فضلاً عن أن معظمها استُمِد من كتب "السيرة النبوية"، و "أخبار مكة" و "الأصنام" وأمثالها لأنه لم يرد في دواوين الشعراء الجاهليين أو مجموعاتهم الشعرية الموثقة.

والحق أن الباحث قد يعتريه الشك في مثل هذه الأشعار، وفي نسبتها إلى الجاهلية والجاهليين؛ بَيْدَ أننا ينبغي أن نأخذ في الحسبان أن قائلي هذه الأبيات لم يكونوا من فحول الشعراء، ولا حتى من المغمورين منهم؛ وإنما كانت لديهم القدرة على نظم الشعر؛ وحينما ابتعثهم باعث إليه، من حادثة طارئة، ومناسبة آنية، اندفعوا إلى نظمه على السجيّة، من دون وترٍ، أو تنقيح، أو تهذيب، شأن ما يفعله الشعراء، عند نظمهم الشعر، وتدبيجهم القصائد.

وأمر آخر، ينبغي أن يراعى أيضاً، وهو أنَّ بعض من رويت لهم هذه الأبيات كانوا من قريش، وقريش لم تكن في الجاهلية معروفة بالشعر[١٤٦]، بمعنى أنه لم يكن لديها شعراء كبار، كامرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، ومن ثمَّ فإن الشعر الذي صدر عن أفراد منها لن يكون في مستوى فنيّ رفيع؛ ولا سيما أن معظم البيات التي نتحدث عنها منظوم على بحر الرجز، الذي لا يصعب على العربي أن

يستعمله، فينشد ما يريد التعبير عنه، وخاصة إذا كان ذلك متمثلاً في أبيات قليلة أو مقطوعات قصيرة.

وأمر ثالث، تجدر الإشارة إليه والاهتمام به، ويشمل ما جاء في البحث من أشعار، وهو أن ذكر الكعبة والحج والعمرة والطواف، وما يتعلق بها من مناسك، ينتظمها غرض ديني، ولم يكن هذا الغرض من صلب الأغراض الفنية للشعر الجاهلي؛ كالمديح، والهجاء، والفخر والحماسة، وغيرها، لذلك لم نكد نجد قصائد طويلة تتضمن ذكر الكعبة والمناسك الأخرى، وإنما اقتصر ورود ذلك على أبيات قليلة، وكأنها إشارات عابرة يأتي بها الشاعر غالباً في مجال القسم والتقديس والتعظيم. ولم يكن مستغرباً بعد ذلك أن نجد مؤلفي كتب "السيرة النبوية" و"أخبار مكة" و"الأصنام"، وأمثالها يترخصون في إيراد الشواهد الشعرية لديهم، وإن لم تصدر عن شعراء معروفين، لقلة الذين رصدوا تلك الظواهر الدينية في أشعارهم.

ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلي عامة قد أعطانا صورة واضحة عن مكانة الكعبة المشرفة لدى العرب القدماء، ومنزلتها الرفيعة في نفوسهم، وقداستها العظيمة في قلوبهم؛ وتجلّى ذلك في عرضه لتسمياتهم المختلفة لها وفي حفظهم لتاريخ بنائها، وفي إظهار تمسكهم بالحج والعمرة إليها، وفيما قدموه من كسوة وهدايا لها، وفيما رعوه لها من حرمة شديدة وتقديس بالغ.

والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الحواشي والتعليقات

---

(١) معجم البلدان: مادة (سنداد)، وتاج العروس: مادة (سند)، ولسان العرب مادة (كعب).

(٢) الأصنام: ص٤، وانظر الوثنية في الأدب الجاهلي: ص٨١.

(٣) الكعبة قبل الإسلام: ص٢، وهذا يعد من البحوث القليلة في هذا المجال.

(٤) الاشتقاق: ص٢٤، ولسان العرب، والقاموس المحيط، مادة (كعب).

(٥) الديوان: ص٢٥، ط القاهرة ١٩٨٥. والجسد: الدم. وغيل والسّعد: أجمتان كانتا بين مكة ومِنى.

(٦) بلوغ الأرب: ٢٦٣/١. أخو فِهْر: أراد به عمر بن الخطاب، لأنه من بني فِهْر والقراضِبة أراد: أصحاب القراضبة: وهي السيوف القطاعة التي تقطع العظام، جمع القِرضاب. والحواظر: جمع الحاظر، وهي المانع لما بحوزته.

وقد ورد فيه رواية عن هشام بن الكلبي: "أن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، خرج في الجاهلية تاجراً إلى الشام، فمرّ بزنباع بن روح، وكان عشّاراً، فأساء إليه في اجتيازه، وأخذ مكسه (أتاويه)، فقال عمر بعد انفصاله:

متى أُلفَ زِنباع بن روح ببلدة إلى النصفِ منها يُقرعُ السِنّ بالندمِ
ويعلم أنّا من لؤي بن غالب مطاعينُ في الهيجا مضاريبُ في التُّهَمِ

فبلغ ذلك زنباغاً، فجهز جيشاً لغزو مكة، فقيل له: إنها حرم الله، ما أرادها أحد بسوء إلا هلك، كأصحاب الفيل، فكفَّ زنباع، فقال (الأبيات).

(٧) خزانة الأدب: ٢٩٢/١. والحقو: الخصر.

(٨) الأزمنة وتلبية الجاهلية: ص١٢٤–١٢٥، وبارق: اسم موضع. ومخلية: جبل أو موضع.

(٩) المائدة: الآية ٩٥.

(١٠) الآية ٩٧.

(١١) الديوان ص١٩١.

(١٢) الديوان: ص١٤-١٥، والسّحيل: الخيط المفرد، والمُبْرم: الخيط المفتول، وكنى بهما عن سهولة الأمر وشدته أو عن السلم والحرب.

(١٣) نسب قريش: ص٣٠٠.

(١٤) الديوان ص٢٧٤.

(١٥) الأصنام: ص٢١. ويسرن: يرتفعن، والغبغب: المنحر ينحرون فيه العتائر.

(١٦) الروض الأنف: ٧٦/٢.

(١٧) الأزمنة وتلبية الجاهلية: ١٢٤، وتمكّك العظم أخذ ما فيه، والمعنى أن مكة إذا لم تقضِ على الفاجر الباغي فإنه يهدم البيت الحرام ويجعله أنقاضاً.

(١٨) الديوان: ص٢٧٩. والصُّهب: جمع أصهب وصهباء، والأصهب: البعير إذا خالطت بياضه حمرة. ومُعْملات: أي تعمل في السير، والضمير يعود على الأبل.

(١٩) الديوان (الحاشية): ص١٤. ورد أن الكعبة سميت بالبيت العتيق لأنه عتق من الجبابرة أن تسطو عليه، وانظر أخبار مكة ٤٥/١، والقاموس المحيط: مادة (العتق) وهو أيضاً القديم والخيار الكريم من كل شيء.

(٢٠) الأنفال: الآية ٣٥. وانظر تفسير الطبري: ٥٢٢/١٣، والروض الأنف: ٢٩٣/٢.

(٢١) قريش: الآيات: ١- ٢- ٣.

(٢٢) الحج: الآية ٢٦.

(٢٣) المائدة: الآية ٢.

(٢٤) إبراهيم: الآية ٣٧.

(٢٥) الحج: الآيتان ٣٢- ٣٣.

(٢٦) لسان العرب: مادة (قبل)، وانظر أسماء الكعبة المشرفة: ص١١.

(٢٧) السيرة النبوية: ٢٣١/١، وانظر صحيح البخاري: ٥٠/٥، وتفسير الطبري: ٣٠٦/٣، وروي أنه قتل قبيل الإسلام، بعد أن لقي أذى كثيراً من قومه.

(٢٨) السيرة النبوية: ٥١/١، وانظر مع بعض الاختلاف في الرواية: أخبار مكة: ٨٩/١، وتاريخ اليعقوبي: ٢٩٣/١، والملل والنحل: ٢٣٩/٢، لاّهم: اللهم. والحلال: جمع الحِلّة؛ وهي جماعة

البيوت، أول القوم الحلول. والمحال: القوة والشدة. وغدواً: غداً، ولعلها تحريف، "عدْواً" من "عدْوا" بمعنى "اعتدى" وهي أنسب للمعنى.

(٢٩) السيرة النبوية: ١٢٢/١، ومع بعض الاختلاف بالرواية، مروج الذهب: ٣٠/٢، ومجمع الأمثال: ٤١٠/١، وانظر تفصيلاً عن مواقف الحج والإفاضة فيها بحثنا "مواقف الحج في التراث العربي القديم" في مجلة "الدارة " ص١٨. وقد ورد في السيرة النبوية أن أبا سيارة هذا قد دفع من المزدلفة إلى منى أربعين سنة، على حمار له، ولم يعتلّ الحمار في ذلك، حتى أدركه الإسلام، فكانت تتمثل به، فتقول: "أصحُّ من عيْر أبي سيّارة".

(٣٠) البقرة: الآية ١٤٤.

(٣١) الآية ١٤٥.

(٣٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤٦/٤.

(٣٣) الديوان: ص ١١١-١١٢. واليُمْنة: ضرب من برود اليمن، والخُنُف جمع الخنيف: ثياب من الكتان، والخنيف: ثوب من الكتان أبيض غليظ. وغير ذي كذب: أراد: قسماً غير كاذب. والشغف: غلاف القلب أو معلقة وكذلك الشغاف.

(٣٤) البقرة: الآية ١٤٤، وانظر تفسير ابن كثير: ٣٣٩/١، وأسباب النزول: ص٣٦.

(٣٥) التوبة: الآية١٩، وأنظر أسباب النزول: ص٢٠٤.

(٣٦) لسان العرب مادة (بني).

(٣٧) أسماء الكعبة المشرفة: ص١٠.

(٣٨) الديوان: ص١٧٥.

(٣٩) السيرة النبوية: ١٢٦/١.

(٤٠) الأصنام: ص٤٥. والحوب: الإثم. وراغو: من "الروغان" أفلتوا في سرعة وخديعة، ولعلها تحريف "راعوا" من "الروع" وهذا أنسب للمعنى. وقودم: اسم موضع.

(٤١) القاموس المحيط: مادة "حمس".

(٤٢) أخبار مكة: ١١٤/١، والمحبر: ص١٧٨.

(٤٣) أخبار مكة: ١١١/١، والمحبر: ص١٧٩.

(٤٤) القاموس المحيط: مادة (حمس).

(٤٥) ديوان الهذليين: ٢٠٢/١ويرتع: من الروع، وخلال السبي: بين ظهريه، وأراد: أنهم يتقون فلا يغزون لأن لهم حرمة الحمس.

(٤٦) الديوان: ص ٦٥. والجأواء: الكتيبة في لونها سواد. وفيلق: عظيمة، وصف بها الكتيبة.

(٤٧) لسان العرب: مادة (قطن).

(٤٨) الديوان: ص١٩١. والمسند: الدعي في قوم ليس منهم.

(٤٩) القاموس المحيط: مادة (ذهب).

(٥٠) معجم البلدان: مادة (أجياد)، ورواية الشطر الثاني في الديوان ص٨: "وما ضم أجواز الجواء ومذْنَبْ". وأجياد: موضع بمكة يلي الصفا.

(٥١) أسماء مكة المشرفة: ص١٤. والديوان: ص٥٢. ولصاف وثبرة: موضعان وأراد بمصطحبات: الإبل التي يمتطيها الحجاج. وقبله في الديوان:

حلفتُ فلم اتركْ لنفسك ريبة وهل يأْثَمنْ ذو أُمّةٍ وهو طائعُ

(٥٢) معجم البلدان: مادة (ألال)، والقاموس المحيط: مادة (ألال)، وانظر بحثنا "مواقف الحج في التراث العربي القديم"، مجلة "الدارة" ص١٢.

(٥٣) الديوان: ص٧٤. ويُنَحِّبْن: يقصدن، والضمير يعود إلى الإبل.

(٥٤) القاموس المحيط، ولسان العرب: مادة (الدار)، وأسماء الكعبة المشرفة: ص١٣- ١٤.

(٥٥) الديوان: ص٢٢.

(٥٦) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ص٩٣.

(٥٧) الأصنام (تكملة): ص١٠٨، والقاموس المحيط: مادة (الدار).

(٥٨) الأصنام: ص٤٢، والبيت في ديوان عامر بن الطفيل: ص٧٦.

(٥٩) معجم البلدان: مادة (بكة)، وأسماء الكعبة المشرفة ص١٢.

(٦٠) أخبار مكة: ٤٥/١، والقاموس المحيط: مادة (بكة)، وقيل إن "بكّة" اسم بطن مكة؛ وبكّ عُنُقَه: دَقّها، وبكّ أيضاً: زحم.

(٦١) آل عمران: الآية ٩٦.

(٦٢) أخبار مكة: ١٨٨/١، ولسان العرب: مادة (قدس) وأسماء الكعبة المشرفة: ص١٣.

(٦٣) أخبار مكة: ١٨٩/١، وأسماء الكعبة المشرفة: ص١٣.

(٦٤) المصدران السابقان وفي الصفحتين نفسهما.

(٦٥) العنكبوت: الآية ٦١، وانظر تفسير ابن كثير: ٤٢١/٣.

(٦٦) الزخرف: الآية ٨٧.

(٦٧) تاريخ الطبري: ٢٥٩/١.

(٦٨) البقرة: الآية ١٢٧.

(٦٩) الحج: الآية ٢٦.

(٧٠) أخبار مكة: ٥/١.

(٧١) آل عمران: الآية ٩٦.

(٧٢) أخبار مكة: ٤٣/١.

(٧٣) الاشتقاق: ص١٥٥.

(٧٤) أخبار مكة: ١٠١/١.

(٧٥) الديوان: ص١٢٥. واللُّج: أراد به غديراً عند دير هند بنت النعمان، وقصد به الدير نفسه.

(٧٦) الديوان: ص١٤.

(٧٧) السيرة النبوية: ٥٨/١.

(٧٨) مروج الذهب: ٢٩/٢، وأخبار مكة: ٧٠/١.

(٧٩) الأصنام، ص٦.

(٨٠) السيرة النبوية: ٧٧/١.

(٨١) أخبار مكة: ٦٧/١.

(٨٢) الأصنام: ص٨، وأخبار مكة: ٥٤/١. ولا يعرف التاريخ الحقيقي لزعامة عمرو بن لحي وتغييره دين إبراهيم، لكن من المرجح أن ذلك كان في بداية القرن الرابع الميلادي، في زمن سابور ذي الأكتاف ملك الفرس؛ كما ينص الشهرستاني، انظر الملل والنحل: ٢٢٣/٢، ومما يزيد في قبول هذا التاريخ أن أخبار عمرو كانت معروفة ومتداولة في الجاهلية وصدر الإسلام، وقد ورد ذكره في حديث شريف، للرسول صلى الله عليه وسلم، على أنه أول من غير ديانة إبراهيم عليه السلام، انظر صحيح البخاري: ٩٦/٦.

(٨٣) السيرة النبوية: ٧٧/١، ومروج الذهب: ٢٩/٢، والملل والنحل: ٢٢٣/٢.

(٨٤) مروج الذهب: ٣٠/٢.

(٨٥) صحيح البخاري: ١٠٨/٦.

(٨٦) السيرة النبوية: ٤١٧/٢. وتَكَسّر: تتكسّر.

(٨٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤٣٧/٦.

(٨٨) أيمان العرب في الجاهلية: ص٢٢.

(٨٩) السيرة النبوية: ٢٧٣/١.

(٩٠) الحج: الآيتان ٢٦- ٢٧.

(٩١) البقرة: الآية ١٢٥.

(٩٢) السيرة النبوية: ٤٤/١، وما بعدها، وأخبار مكة: ١٢٢/١، وما بعدها، وتاريخ اليعقوبي: ٣١٥/١، وانظر في إفاضة الحجاج من المزدلفة صحيح البخاري: ٢٠١/٢. وكان الحج، في الجاهلية، يبدأ قبل غروب شمس يوم التاسع من ذي الحجة، حينما يدفع الحجاج من عرفة إلى المزدلفة، فيبيتون الليلة إلى الفجر، وعند شروق الشمس يفيضون إلى منى، فيذبحون هديهم، ويرمون الجمار، وقت غروب الشمس، وبذلك تنتهي مسيرة الحج، عشية يوم العاشر من ذي الحجة، ولا يتبقى للحجاج إلا دخول مكة، والطواف بالبيت، والعودة إلى ديارهم.

(٩٣) السيرة النبوية: ٢٧٤/١.

(٩٤) الديوان: ص٥١٨.

(٩٥) الديوان: ص١٢١ وأراد: هجاؤك على مثل الثياب على رجل قد أحرم فهو يسبح ويقرأ. والمهينم: الذي يخرج أصواتاً غير واضحة.

(٩٦) المحبر: ص٣١٣. والشداد: أراد الإبل القوية. والناجية: السريعة.

(٩٧) الأزمنة وتلبية الجاهلية: أراد الإبل القوية. والناجية: السريعة.

(٩٨) المصدر نفسه: ص١٢١. وعججنا: أي رفعنا صوتنا بالتلبية والدعاء.

(٩٩) السيرة النبوية: ١٧٢/١.

(100) نسب قريش: ١٩٧. والسفين. ويكفه: أي يجمع بعضه إلى بعض. والسيب: العطاء. وأنبط" أظهر. والمشعران: أراد بهما الصفا والمروة.

(101) السيرة النبوية: ١٥٠/١. الدُلافة: أراد بها الإبل التي تمشي متمهلة لسمنها. والرُفُد جمع الرّفود: وهي الحلوب التي تملأ الرِّفْد، وهو القدح الذي يحلب فيه.

(102) القاموس المحيط: مادة (العمر). والتلبيد: هو أن يأخذ الحاج شيئاً من نبات الخطمي والآس والسّدر، وشيئاً من الصمغ، فيجعلها في أصول شعره ورأسه. انظر الحيوان: ٣٣٧/٥.

(103) صحيح البخاري: ١٧٥/٢، وانظر أخبار مكة: ١٢٥/١. وقصدوا بأشهر الحج: ذا العقدة وذا الحجة والمحرم، لأنها من الأشهر الحرم، ولأن الحجاج فيها يكونون مشغولين بأمر الحج. وبرا الدُبُر: أي برأ دبر الإبل مما أصابها من الحج عليها. وعفا الوبر: كثر وزاد نموه.

(١٠٤) مجمع الأمثال: ١٨٢/٢، والروض الأنف: ٧٦/٢. ينعلن ظلالها: الضمير في الأبيات يعود إلى الإبل، والمراد أصحابها، أي أنها اتخذت من ظلال أحفافها نعالاً لسرعتها الشديدة. وذات الصّفاح، وهي حجارة عريضة. والشظى: جمع الشظية، وهي عظم الساق، ورئال: جمع رأل، وهو ولد النعام.

(١٠٥) الروض الأنف: ٧٢/٢. وآل فهر: قصد بهم قريشاً، لأن فهراً أحد أجدادهم. والحجْرُ: ما حواه الحطيم المدار بالكعبة جانب الشمال. والحجر الأسود. وورود أن هذه الحادثة كانت السبب في عقد حلف الفضول. انظر أيضاً السيرة النبوية: ١٣٣/١.

(١٠٦) المفضليات: ١١١. وأراد الشاعر أنهم قتلوا رجلاً مُحرماً مقابل رجل قتل وهو محرم أيضاً.

(١٠٧) الديوان: ص١٣٩.

(١٠٨) أخبار مكة: ١٢٦/١، والسيرة النبوية: ٧٨/١، والأصنام: ص٧.

(١٠٩) السيرة النبوية: ٧٨/١، والمحبر: ص٣١١.

(١١٠) الأزمنة وتلبية الجاهلية: ص١١٦، وما بعدها، والوثنية في الأدب الجاهلي: ص٣٢١، وما بعدها.

(١١١) السيرة النبوية: ٧٨/١.

(١١٢) الأصنام: ص٣٣.

(١١٣) الديوان: ص١٤.

(١١٤) السيرة النبوية: ١١٥/١ونابت: الابن الأكبر لإسماعيل عليه السلام، وكانت أمه جرهمية. والشاعر أحد المُعمّرين القدماء، زعم أن هذه الأبيات قصيدة قالها، لما أجلت خزاعة قبيلة جرهم من مكة، انظر معجم الشعراء: ص١٠.

(١١٥) أخبار مكة: ١١٤/١.

(١١٦) المصدر نفسه: ١١٧/١.

(١١٧) الأصنام: ص ٧. والقاموس المحيط: مادة (شرق). وأيام التشريق: ثلاثة أيام بعد يوم النحر: فسميت بذلك لأن لحوم الأضاحي تقدد بالشمس، وقيل سميت بذلك لقولهم: "أشرْق ثَبِير كيما نغير" وقيل سميت بذلك لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس.

(١١٨) السيرة النبوية: ١٧٧/١. مخيسة: مذللة، يريد أنها محبوسة. الأخاشب: جبال مكة، وهما جبلان، فجمعهما على ما يليهما.

(١١٩) الحج: الآية ٢٩.

(١٢٠) بلوغ الآرب: ٢٣٤/١ وسعد أو أسعد سم لتبع الثالث.

(١٢١) أخبار مكة: ٨٠/١. ونسبت الأبيات إلى تبع نفسه، وهو بعيد عن العصر الجاهلي.

(١٢٢) السيرة النبوية: ٢٦/١. والحبير: الثوب الناعم الموشّى.

(١٢٣) الديوان: ص٦٠.

(١٢٤) السيرة النبوية: ٢٧٣/١. والرتاج: الباب العظيم. والنافل: الذي يتطوع بأداء النافلة.

(١٢٥) الديوان: ٢٩١. ومناة: اسم الصنم، وكان الأوس والخزرج ممن عبدوه في الجاهلية.

(١٢٦) تاريخ اليعقوبي: ٢٩٦/١.

(١٢٧) أخبار مكة: ١٢١/١. والآلية: اليمين والقسم.

(١٢٨) معجم الشعراء: ص٥٧.

(١٢٩) الديوان: ١٣٥.

(١٣٠) المصدر نفسه في شرح الديوان: ١١٩/٢. وفيه حديث مفصل عن سرقة الغزال.

(١٣١) المصدر نفسه: ٢١٣/١. والدر: الياقوت، وقيل إن عينيّ الغزال كانتا ياقوتيتين. والوَرِق: الفضة.

(١٣٢) المحبر: ص٣٢٨.

(١٣٣) ثمار القلوب: ١٨.

(١٣٤) السيرة النبوية: ٨٢/١.

(١٣٥) المصدر نفسه: ٥٣/١، وما بعدها.

(١٣٦) سورة الفيل.

(١٣٧) السيرة النبوية: ٥٧/١-٥٨، وبلوغ الأرب: ٢٥٨/١. والحريم: الحرم، ولعله أراد بها الكعبة وسقيمها: أراد به أبرهة، إذ حمل إلى صنعاء، بعد أن أصابه ما أصابه، ومات بها.

(١٣٨) الديوان: ص٢٩٣. وحبس: الضمير يعود إلى الله تعالى. والمغمس: موضع بطريق الطائف. والمقصود: المجروح. والجران: العنق. وقطر: حُذِّر، وكبكب: اسم جبل؟

(١٣٩) السيرة النبوية: ١٩٥/١، وأخبار مكة: ١٠١/١. وورد في السيرة أن ذلك الهدم كان قبل الإسلام بخمس سنين.

(١٤٠) السيرة النبوية: ١٢٥/١.

(١٤١) المصدر نفسه: ١/١١٥. وانظر في مناسبة القصيدة وترجمة الشاعر معجم الشعراء: ص١٠ فليست تغادر: أي لا تترك بعد خروجها من الحرم فتصطاد، وكأنه بذلك يوحي إلى حاله، فعندما أخرج من مكة لم تبق له حرمة.

(١٤٢) الديوان: ص ٢٥، ط القاهرة ١٩٨٥.

(١٤٣) السيرة النبوية: ١/١٢٦. لا يغرنك الغرور: أي لا يخدعنّك الباطل فتظلم فيها. ويبور: يهلك، والعرْصة: الساحة. والعُصْم: جمع أعصم، وهو الظبي الذي في ذراعيه أو إحديهما بياض وسائره أسود أو أحمر. وثبير: اسم جبل قرب مكة.

(١٤٤) العنكبوت: الآية ٦٧، وانظر تفسير ابن كثير: ٣/٤٢١.

(١٤٥) آل عمران: الآية ٩٧.

(١٤٦) العصر الإسلامي: ص٤٧.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أخبار مكة: للأزرقي، عبدالله بن أحمد (ت٢٥هـ)، طبعة الماجدية، مكة المكرمة ١٣٥٢هـ.
- الأزمنة والأمكنة: للمرزوقي، أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٣٢هـ.
- الأزمنة وتلبية الجاهلية: لقطرب، محمد بن المستنير (ت بعد ٢٠٦هـ)، تحقيق حنا جميل حداد، مكتبة المنار، الأردن ١٩٨٥م.
- أسباب النزول: للواحدي، علي بن أحمد (ت ٤٦٨هـ)، تعليق وتخريج مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق ١٩٨٨م.
- أسماء الكعبة المشرفة: لمحمد المكي بن الحسين (ت ١٣٨٣هـ)، المطبعة التعاونية بدمشق.
- الاشتقاق: لابن دريد، محمد بن الحسن (٣٢١هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٧٩م.
- الأصنام: لابن الكلبي، هشام بن محمد (ت٢٠٦هـ)، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية ١٩٢٤م.
- أيمان العرب في الجاهلية: لإبراهيم بن عبدالله النجيرمي (ت ٤٣٠هـ)، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٤٣هـ.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: لمحمود شكري الألوسي، عني بشرحه وضبطه محمد بهجة الأثري، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي: لشوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.

- تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك: لأبي جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.
- تاريخ اليعقوبي: لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح (٢٩٢هـ)، دار العراق، بيروت ١٩٥٥م.
- تفسير الطبري، جامع البيان في تفسير آي القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، البابي الحلبي، مصر ١٩٥٤م.
- تفسير ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: لإسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) البابي الحلبي، مصر.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: للثعالبي، عبد الملك بن إسماعيل (ت ٤٣٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥م.
- الحيوان: للجاحظ، عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، البابي الحلبي، مصر ١٩٦٥م.
- خزانة الأدب ولب لباب العرب: للبغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ) تحقيق عبد السلام هارون، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧م.
- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس: تحقيق محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية، القاهرة ١٩٦٠م.
- ديوان امرئ القيس: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.
- ديوان أمية بن أبي الصلت: تحقيق عبد الحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٧م.
- ديوان أوس بن حجر: تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، ودار بيروت، بيروت ١٩٦م.
- ديوان بشر بن أبي خازم: تحقيق عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٢م.

– ديوان حاتم الطائي: رواية ابن الكلبي، هشام بن محمد (ت٢٠٦هـ)، تحقيق عادل سليمان جمال، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة١٩٩٠م.

– ديوان حسان بن ثابت: تحقيق وليد عرفات، دار صادر، بيروت ١٩٧٤م.

– ديوان الخنساء: شرح ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ)، تحقيق أنور أبو سويلم، دار عمار، عمّان ١٩٨٨م.

– ديوان زهير بن أبي سلمى: صنعة الأعلم الشنتمري (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق فخر الدين قباوة، دار القلم العربي، حلب ١٩٧٠م.

– ديوان سلامة بن جندل: تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب ١٩٦٨م.

– ديوان الطفيل الغنوي: تحقيق محمد عبد القادر محمد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٨م.

– ديوان عامر بن الطفيل: رواية محمد بن قاسم الأنباري (ت ٣٢٨ هـ)، دار صادر– ودار بيروت، بيروت ١٩٦٣م.

– ديوان عنترة بن شداد: تحقيق محمد سعيد مولوي، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٨٣م.

– ديوان قيس بن الخطيم: تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت ١٩٦٧م.

– ديوان النابغة الذبياني: صنعة ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ)، تحقيق شكري فيصل، دار الفكر، بيروت ١٩٦٨م.

– ديوان النابغة الذبياني: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٨٥م.

– ديوان الهذليين: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة١٩٦٥م.

– الروض الأنف: للسهيلي، عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٥١٨هـ)، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٧م.

– السيرة النبوية: لابن هشام عبد الملك(ت٢١٣ أو ٢١٨هـ)، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، البابي الحلبي، مصر ١٩٥٥م.

– شرح القصائد السبع الجاهليات: للأنباري، أبي بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٨)، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.

– صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦ هـ) مطابع الشعب، مصر ١٣٧٨هـ.

– القاموس المحيط: للفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (ت٨١٦هـ)، البابي الحلبي، مصر ١٩٥٢م.

– الكعبة قبل الإسلام: لعبد القدوس الأنصاري، ضمن بحوث ألقيت في "الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام"، كلية الآداب، جامعة الرياض ١٣٩٩–١٩٧٩م، ويعد من البحوث القليلة في هذا المجال.

– لسان العرب: لجمال الدين مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، المطبعة الأميرية، بولاق ١٣٠٠هـ.

– مجمع الأمثال: للميداني، أحمد بن محمد (ت٥١٨ه)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٩٥٩م.

– المحبّر: لمحمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ)، تحقيق إبلزة ليختن شتيتر، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٤٢م.

– مروج الذهب ومعادن الجوهر: للمسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) دار الأندلس، بيروت ١٩٦٥م.

– معجم البلدان: لياقوت شهاب الدين الحموي (ت ٦٢٦هـ) دار صادر، بيروت ١٩٥٥م.

– معجم الشعراء: للمرزباني، محمد بن عمران (ت٣٨٤هـ)، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، مصر ١٩٦٠.

– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: لجواد علي، دار العلم للملايين بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد ١٩٧٦م.

– المفضليات: اختيار المفضل بن محمد الضبي (ت ١٧٨هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٨م.

– الملل والنحل: للشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق محمد سيد كيلاني، البابي الحلبي، مصر ١٩٧٦م.

– مواقف الحج في التراث العربي القديم، لعبد الغني زيتوني، مجلة "الدارة"، العدد الأول، السنة العشرون شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤١٤هـ.

– نسب قريش: لمصعب بن عبدالله الزبيري (ت ٢٣٦)، تحقيق أ.ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر ١٩٥٣م.

– الوثنية في الأدب الجاهلي: لعبد الغني زيتوني، وزارة الثقافة، وإحياء التراث العربي، دمشق ١٩٨٧م.